المركز القومي للترجمة

مدخل إلى
البحث النسوي
ممارسة وتطبيقًا

شارلين ناجي هيسي - بايبر
باتريشا لينا ليفي

ترجمة وتقديم
هالة كمال

2356

مدخل إلى..

البحث النسوى

(ممارسة و تطبيقا)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين
المشرف على السلسلة: فيصل يونس

- العدد: 2356
- مدخل إلى.. البحث النسوى: ممارسة وتطبيقا
- شارلين ناجى هيسى- بايبر، وباتريشا لينا ليفى وآخرون
- هالة كمال
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:
Feminist Research Practice
By: Sharlene Nagy Hesse-Biber and Patricia Lina Leavy
Copyright © 2007 by Sage Publications, Inc.
تصدر هذه الترجمة بالتعاون مع Sage Publications, Inc وهى الناشر الأصلى للطبعة الإنجليزية بالولايات المتحدة الأمريكية ولندن ونيودهى

هذا العمل يصدر بالتعاون مع مؤسسة فورد

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مدخل إلى..

البحث النسوى

ممارسة وتطبيقا

تأليف: شارلين ناجى هيسى- بايبر

باتريشا لينا ليفى

ترجمة وتقديم: هالة كمال

2015

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هيسى ، شارلين ناجى.
مدخل إلى البحث النسوى: ممارسة وتطبيقا/ تاليف شارلين ناجى هيسى، بايبر، باتريشا لينا ليفى، ترجمة وتقديم هالة كمال.– القاهرة: وزارة الثقافة، ٢٠١٥
عدد الصفحات : ٥٢٠ صفحة
المقـــــــاس: ١٧ × ٢٤ سم
تدمك ٧ ٠١١٧ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ – البحوث الاجتماعية.
أ– ليفى، بايبر، باتريشا لينا (مؤلف مشارك)
ب– كمال، هالة (مترجم، مقدم)
جـ– العنوان

٠٠١,٤٣٣

رقم الإيداع
٢٠١٥ / ٤٣٥٧

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويـات

تقديم : البحث النسوي والترجمة النسوية ٧

شكر وتقدير ١٧

تصدير : فلسفة الكتاب التعليمية ٢١

الفصل الأول: دعوة إلى البحث النسوي ٢٣
بقلم : أبيجيل بروكس، وشارلين ناجي هيسي-بايبر

الباب الأول: مقاربات نسوية إلى الإبستمولوجيا والنظرية ٥٧

الفصل الثانى: الإمبيريقية التجريبية النسوية: مواجهة التحيز الجنسي و«تصحيح الأوضاع». ٥٩
بقلم : دينيز ليكينبي

الفصل الثالث: إبستمولوجيا الموقعية النسوية: بناء المعرفة والتمكين من خلال تجارب حياة النساء. ٩٧
بقلم : أبيجيل بروكس

الفصل الرابع: ما بعد الحداثة النسوية وما بعد البنيوية النسوية ١٣٧
بقلم : باتريشا لينا ليفي

الباب الثاني: مقاربات نسوية إلى المنهجيات ومناهج البحث ١٧٥

الفصل الخامس: عقد المقابلات النسوية المعمقة ١٧٧
بقلم: شارلين ناجي هيسي-بايبر

الفصل السادس: ممارسة التاريخ الشفاهي النسوي ومقابلات مجموعات النقاش ٢٢٧
بقلم: باتريشا لينا ليفي

الفصل السابع: ممارسة الإثنوجرافيا النسوية ٢٨٥
بقلم: إلانا د. بوتش و كارين م. ستالر

الفصل الثامن : الممارسة النسوية في تحليل المضمون ٣٣٧
بقلم: باتريشا لينا ليفي

الفصل التاسع: مقاربات نسوية إلى البحث متداخل المناهج ٣٧٥
بقلم: دينيز ليكينبي، وشارلين ناجي هيسي-بايبر

الفصل العاشر: البحث الاستطلاعي النسوي ٤٣٥
بقلم: كاثي ماينر-روبينو، وتوبي إبستين جايارانتي

الباب الثالث: البحث النسوي في الممارسة والتطبيق ٤٧٩

الفصل الحادى عشر: التجميع والتركيب: ممارسة البحث النسوي وتطبيقه ٤٨١
بقلم: شارلين ناجي هيسي-بايبر

الفصل السادس

ممارسة التاريخ الشفاهي النسوي

ومقابلات مجموعات النقاش

باتريشا لينا ليفي

في المقطع التالي من "ما وراء الستار"، تتيح لنا الباحثة النسوية ماكسين بيرتش الدخول وراء ستارة عملها البحثي، فتتناول بالدراسة القضايا المتعلقة بفكرها النسوي في ممارسة البحث الكمي. وهي تصف كيفية قيامها بالتفاوض بشأن بعض المسائل المعقدة التي تواجهها الباحثات النسويات خلال عملية بناء العلاقات في الميدان وأثناء المقابلات الشخصية، وهو الأمر الجوهري في ممارسات التاريخ الشفاهي، والذي يتطلب درجات عالية من التفاهم والثقة وروح العمل المشترك. وينصب حديث ماكسين بيرتش (Maxine Birch) في جوهره على السؤال التالي: "هل يمكنك التعرف على 'النسوية' في الميدان؟"*

* ملحوظة : بعض أجزاء هذا الفصل مأخوذة بموافقة المصدر التالى :
Hesse-Biber and Leavy (2006), The Practice of Qualitative Interviewing, Sage Publications, Inc.

ما وراء الستار مع ماكسين بيرتش

إن الدور البحثي الذي أتبناه عند إجراء مقابلة أو المشاركة في سياق بحثي يسعى إلى أن يبدو "عاديا" بقدر المستطاع، وهو دور ندين به لتراث علم الإثنوجرافيا وكثير من المساهمات المنهجية التفاعلية والنسوية. ويتيح البحث الكمي الفرصة أمام الحوارات لتجاوز المعاني العامة والمعممة، بما يشجع على مزيد من التعبير الحميمي والخاص. وأرى أن الباحثة أو الباحث اللذين يختلطان بالناس وبالسياق الاجتماعي للبحث قادران على بلوغ أعماق المعنى اللازم للبحث الكمي المقبول والموثوق به. وأشعر أنا بالراحة عند القيام بدور البحث الطبيعي (naturalistic research)، إذ أستمتع بالوقت الذي أقضيه مع الناس وفي التعرف عليهم، كما أميل إلى دراسة السياقات الاجتماعية المحيطة بي، حيث تتجانس تجاربي الشخصية مع تجارب الآخرين. إن الوجود في الميدان يشعرني بأنه امتداد لحياتي اليومية.

ولست على يقين من مصدر فضولي العميق لفهم الناس المحيطين بي، فأنا أذكر طفولتي باعتبارها مرحلة خالية من أي وعي سياسي أو ثقافي، فقد كانت أسرتي وأصدقائي يعيشون- كغيرهم- دون التوقف أمام حياتهم بالتفكير أو التساؤل. وفي سبيل فهم مصدر نشأة اهتمامي بالبحث يتعين عليّ أن أتناول كيفية تشكيل النسوية لما أنا عليه. فكوني امرأة شابة خلال السبعينيات من القرن العشرين استوعبت الكثير من الروايات الأدبية النسوية، ثم اتجهت لدراسة النسوية في العلوم الاجتماعية خلال الثمانينيات. وقد كانت الحكايات النسوية تحمل تفسيرا لتجاربي وتأكيدا على كون التجربة الشخصية فعلا سياسيا، مما أدى إلى نشأة تلك الهوية النسوية القوية التي تجعلني الآن أعتبر نفسي نسوية. ولكن هل أنا باحثة نسوية؟ لقد أطلقت على نفسي هذا المسمى في نصوص أكاديمية، ولكن

التوقف العميق أمام علاقتي بالمشاركين والمشاركات في الميدان يكشف عن أني لا أعترف بهويتي النسوية أثناء بناء علاقات بحثية.

وأنا أقوم هنا بتناول ذلك الأمر من حيث ما إذا كان بسبب شعوري بعدم الراحة إزاء الإعلان عن نفسي باعتباري نسوية في الميدان؟ أم بسبب ما تتطلبه علاقات البحث من حساسية خاصة تجاه مدى رد فعل الطرف الآخر تجاه تلك المعلومة؟

وفي "الدراسة العلاجية" استخدم الكثيرون من المشاركين الذكور العلاج الجماعي (group therapy) لفهم تجاربهم مع العلاقات الشخصية مع النساء. وفي سبيل تشجيع المشاركين الذكور على التعبير لي عن مشاعرهم، نشأت لدي حساسية معينة للتعرف على نظرتهم تجاه النساء، والتي كثيرا ما كانت تتعارض مع قيمي الشخصية والأكاديمية بشأن النساء والفكر النسوي بأنواعه. ولم أعارض قط أيا من الافتراضات التي كانت لديهم عني، وكنت آمل في أن يعتبروني امرأة "عادية"؛ لأني كنت أرى في ذلك أمرا ييسر كشفهم عما في أنفسهم. وقد كنت على قناعة بأن الإعلان الصريح عن أية آراء نسوية خلال هذه العلاقة البحثية قد يؤدي إلى تغيير الافتراضات تلك يحملونها تجاهي مما قد يغير بالتالي ما يحكونه لي. ولذا احتفظت بهويتي النسوية لنفسي كما لم أصرح بأثر الفكر النسوي على صياغة خطتي البحثية. ومن ناحية أخرى كثيرا ما كانت النساء المشاركات في هذه الدراسة يعبرن عن قيم نسوية شبيهة بقيمي، وبالتالي كانت هويتي النسوية تظهر على السطح، فكان اعتباري امرأة "عادية" في نظر هؤلاء النساء يشمل التعبير عن الكثير من الآراء النسوية عن الرجال عامة وبشأن كيفية تشكيل بنية العلاقات الشخصية. وهكذا كان إحساسي بذاتي النسوية عاملا مساعدا في تشجيعهن على التكلم معي عن مشاعرهن وتجاربهن. ومع ذلك لم أتطرق في مناقشاتي معهن إلى

كيفيـة تأثير الفكر النسـوي على موقعي البحثي. وفي دراسـة أخرى عن "الشـباب وسرديات التدخين" كنت في حاجة إلى إثارة وعيي بالسياقات المختلفة والعلاقات الاجتماعية القائمة في حيوات الشباب، فقد كان الشباب يعتبروننني "عادية" من منطلق كوني "محلية" و"أمًّا" و"مدخنة سـابقة"، ومـن هذا الموقع كانوا يشـعرون بأني قادرة على تفهـم أوجه متنوعة من حياتهم. وقد أدى ذلـك إلى خلق علاقة بحثية تمتعت فيها بتلقي الكثير من الحكايات الشخصية والحميمية عن حيواتهم.

وهكذا فحين أتأمل مختلف العلاقات البحثية التي أدخل فيها وأبنيها ولا أندمـج فيها، فإنني أشـعر بأني أتعامل فيها على سـجيتي مع وجود حدود تتلاءم مع الحدود التي تتطلبها مهنية البحث. إن الإعلان عن كوني باحثة نسـوية أثناء خلق علاقة بحثية يبدو أمرا غير حيوي ومسألة إضافية، فأنا أقـوم طواعية بالإفصـاح عن جوانب خاصـة بذاتي في سـبيل بناء قاعدة مشـتركة في الحوار لأنه يشجع الآخرين على الكلام معي. ولكني أحتفظ بأجـزاء مـن ذاتي لنفسـي، وهي جوانب شخصـيتي التي قـد تعتبر فائقة الاختـلاف أو التبايـن أو التعارض مع الآخرين، فالطرف المشـارك في البحـث ليس منوطـا بالتفاعل مع ما قد أكون عليـه في جوانب أخرى من حياتي. نعم، أنا أقوم بتشكيل البحث، وأقوم بتوجيه المسار والمشاركة في صياغة الروايات التي يتم سردها، ولكني لست العامل المحفز. نعم، أقوم بالـرد على الأسـئلة المطروحة عني، في حين وفي حـال طرحها، ولكن أي إضـافة مني إنما تسـعى لاكتشـاف المزيد عما يقوله الطرف الآخر أو عما يحدث. ويمكنني أن أشـبه هذا الدور بدور المعالج النفسي الذي يتبنى مدخـل التركيـز علـى الشـخص (person-centered approach)، وباعتباري باحثة؛ فإني أتبنى التركيز على المسـتجيبة أو المسـتجيب (re-spondent-centered). فدوري في الميدان لا يقوم على الكشـف عن كيفية تفهم الشـخص لتجاربـه أو تجاربها، وإنما تيسـير الزمان والمكان

للكشف واستيعاب الآراء والتفسيرات التي قد تنشأ عن تلك التجارب.

وفي نطاق الأبحاث التي قمت بها فإن الحكايات الشخصية والمعاني التي توصلت إليها من الملاحظة المباشرة هي تنتج داخل العوالم الشخصية التي ينتمي إليها المشاركون والمشاركات، والعالم البحثي الذي أحدده أنا هو جزء من حياتهم اليومية. فالمشاركات والمشاركون يفهمون قصص حياتهم بطريقتهم، كما يشيرون في الوقت نفسه إلى كيفية إمكانية تأمل بعض جوانبها على المستوى السياسي. وهم ليسوا في حاجة لي كي أشير إلى ذلك الأمر بدلا منهم. وختاما فإن الدور البحثي الذي أتبناه ليس مخادعا بسبب عدم انزعاجي الشخصي من الإفصاح عن نفسي كباحثة نسوية، وإنما يتيح لي ذلك العمل نحو تحقيق دور أكثر أصالة وانسجاما بما يتماشى مع الموقع الذي يرغب المشاركات والمشاركون في وضعي ضمنه. وأحيانا تتطور تلك العلاقة البحثية إلى شيء من الحميمية والراحة، كلما ازداد الكشف عن التجارب وقصص الحياة. وفي أحيان أخرى يؤدي ذلك إلى فضول الوعي بالاختلاف والغرابة في إطار من الاحترام. إن تلك العلاقة البحثية القائمة على "التعارف" والتفاعل والبناء وعدم التعامل مع شخص آخر يمكن أن تنتهي من آن إلى آخر بمشاعر البعد وعدم الاستلطاف، ولكن نادرا ما تنتهي أية علاقة بحث دون الكشف عن أمر مهم للمشروع البحثي.

إن نصوص البحث النسوي تنبهنا إلى أشكال التفاوت الذي ينشأ بين الإنتاج الأكاديمي للمعرفة وبين ما تم في الميدان، كما تقدم لنا تلك النصوص استراتيجيات منهجية، مثل كتابة السيرة الذاتية، لمواجهة ذلك التوتر القائم. وأنا أرى وجود حاجة لهذا التوتر للحفاظ على أكبر قدر من القرب و"الحقيقة" في هذا اللقاء البحثي، وهو توتر يتغير تلقائيا عند انتهاء التعامل بين طرفي العلاقة البحثية. إن النسوية هي جزء من مفهومي عن هويتي، وأنا أعلن عن ذلك في الظروف الملائمة، وهو إعلان قد يفرض

علـى الطرف الآخر إحساسـا قويـا بـ"من أنـا" قبل منـح العلاقة الوقت الـكافي لتطورها، فعلاقات البحث تتطلب الوقت لحمايتها من هذا الشـكل من الفرض والإجبار. إن المسـألة الشخصية هي أمر سياسي، والباحثات الكميات النسويات على علم جيد بالموقع المتميز الذي يتمتعن به، بما يجعل عمليات تسييس الأمر واضـحة ومرئية. ولم يسبق لي أن دخلت سياقات بحثيـة حاملة نية سياسـية صريحـة لدعم التغيير الاجتماعـي عبر العلاقة البحثيـة، إذ يتعين عليّ أن أتيح للمشـاركات والمشـاركين تفهم رواياتهم واستيعابها خلال مسـار البحث، وهو ما يتطلب مني أن أتحمل المسؤولية الأخلاقيـة لاختياري مكان وزمان وكيفية التعبير عما لدي من معرفة أو قيم أو قناعات خلال اللقاء البحثي. كما يتطلب مني أيضـا أن أتحمل نتيجة الخطوة التالية حين يصـبح في وسعي تسـييس الروايات الشخصية لإنتاج معرفة أكاديمية. ولذا فسـأظل أطلق على نفسي مسمى الباحثة النسوية بما أن تلك هي المعرفة الأكاديمية التي اخترت أن أقوم بإنتاجها، وسأواصـل في الميدان تبني دور التخفي على أمل أن يعكس ذلك كيفية قيام المشـاركين والمشاركات بتفسير الأمر بأنفسهم.

ويشـير الكثـير من تجاربـي في الحياة إلى كيفيـة التغير الـذي يطرأ على الحوار عندما أعلن عن تمسـكي ببعض المبادئ والقيم النسـوية، ومن هنا فعنـد "قيامـي بالبحث" يكون اختيـاري قائما على التحكـم في كيفية تقديم مفهومي الشخصـي للنسـوية والمعرفـة بالفكر النسـوي الأكاديمي، وهو تحكم يتكيف مع الطريقة التي أحدد بها موقعي باعتباري باحثة نسـوية في اللقاءات البحثية المتنوعة وفي إنتاج النص البحثي.

ملحوظة

أتقـدم بالشـكر والامتنان لكل من ريبيكا جونز ونينا نيسـن، وهما زميلتان نسـويتان ساعدتاني في تطوير أفكاري المعروضة هنا.

وبشكل عام، فإن التاريخ الشفاهي هو منهج مركز في عقد المقابلات وذو جذور أنثروبولوجية، كما يكثر استخدامه أيضا بواسطة علماء الاجتماع والمؤرخين والمؤرخات، وكيرا ما يرتبط بالنسويات. وتشرح إيلين كلارك أن التاريخ الشفاهي "يقع في المساحات ما بين الإثنوجرافيا وعلم الاجتماع والتاريخ" (Eileen Clark، 1999، p. 3). وهنالك جانب يتسم بالأداء التمثيلي (performative) في التاريخ الشفاهي، لأن الحكي يشتمل دوما على الأداء:

> في إشارتها إلى الأداء التمثيلي في الحكي، تؤكد فينيجان على أن هذه العلاقة الديناميكية هي ما يمكّن الحكائين من اختيار الزمان والمكان الأنسب لتحقيق أقصى تأثير، وصياغة الصور المجازية، وإضافة التأكيد، واستخدام الإيقاع لبناء المعنى الدرامي والقوي في كل مرة يتم فيها حكي حكاية ما. وقد واجهت هي بقوة ميل الباحثين إلى اختزال الحكايات الأفريقية في مجرد نص، كما واصلت تأكيدها على القيمة الأدبية لفن الحكي. (Schneider 2002، p. 50)

وبينما يمكن القيام بالتأريخ الشفاهي من أي منطلق من المنطلقات النظرية والإبستمولوجية العديدة، فإن التاريخ الشفاهي يعتبر بحق بالنسبة لبعض النسويات هو أداة مناسبة لاكتساب المعرفة عن تجارب الحياة من النساء وغيرهن. إن للتاريخ الشفاهي- كما هو الحال بالنسبة للفكر النسوي- أجندة سياسية (Turnbull 2000، p. 16)، كما يقوم بدمج النساء في البحث الأكاديمي (Sangster 1994، p. 5). ويعتمد التاريخ الشفاهي على تراث طويل من الانتقال الشفاهي للمعرفة، ويعتمد على التواصل القوي والحكي. وتختلف روايات التاريخ الشفاهي من المقابلات الشخصية المعمقة في أنها بطبيعتها أطول وتتوغل في الحوار، حيث يقوم الباحث والباحثة تجاه الطرف الذي يمثل الذات في المقابلة (interview subject) بدور المستمع النشط والميسر. ويمكن لمقابلات التاريخ الشفاهي أن تصل إلى درجة العمق التي تجعل الباحث أو الباحثة يعقدان

جلسات عديدة مع نفس المستجيبة أو المستجيب، بل ويحدث أحيانا أن يعمل الباحث أو الباحثة مع مستجيبة أو مستجيب واحد أو أكثر على مدار شهور أو سنين. وكثيرا ما نجد أن المشروعات التي تستخدم منهج التاريخ الشفاهي تجمع المادة من عدد من المستجيبين أو المستجيبات أقل من عددهم في مشروع يستخدم المقابلات الشخصية المعمقة، ولكن الباحثة أو الباحث يكتسبان فهما أعمق لتجارب المستجيب أو المستجيبة، وعادة ما يكون ذلك على مدار فترة طويلة في حياتهم.

- لماذا تستخدم النسويات منهج التاريخ الشفاهي؟
- ما الصلات القائمة بين منهج التاريخ الشفاهي والاهتمامات النسوية؟
- كيف تستخدم النسويات التاريخ الشفاهي وكيف يحملن تصورا مختلفا بشأنه مقارنة بالباحثات والباحثين الآخرين الذين يستخدمون نفس المنهج؟

يكثر استخدام النسويات للتاريخ الشفاهي كسبيل لكسب مادة كمية وفيرة من أناس قلما تم تضمين تجاربهم ضمن أجندات البحث. وفي هذا الصدد يكون التاريخ الشفاهي أداة للتوصل إلى المعرفة المسكوت عنها أو المستبعدة، وذلك من أجل الكشف عن تلك المعرفة "الغائبة" والحفاظ عليها. فعلى سبيل المثال نجد كتاب روشيل سايدل بالغ الأهمية، عن النساء اليهوديات في معسكر تعذيب رافينسبروك (Rochelle Saidel The Jewish Women of Ravensbrück Concentration Camp) 2004، يستخدم التاريخ الشفاهي ضمن غيره من المناهج لتسجيل التاريخ الذي سبق السكوت عنه بشأن اليهود الذين عانوا في معسكر رافينسبروك، وخاصة تجارب النساء اليهوديات اللاتي عانين بأشكال لها خصوصيتها. فهو جزء من التاريخ تم تجاهله. كما يكثر استخدام التاريخ الشفاهي أيضا بواسطة النسويات لدراسة تجارب القهر أو الانتماء لفئة مقهورة. فيقدم التاريخ الشفاهي للنسويات أداة للوصول إلى التجارب الشخصية مع القهر. فعلى سبيل المثال، نجد أن دراسة سباركس (Sparkes 1994) قامت على مشروع مقابلات للتأريخ الشفاهي مع مدرسة مثلية للتربية الرياضية من

أجل دراسة كيف شكّل التمييز والتحيز للجنسانية الغيرية (heterosexism) تجاربها في مكان العمل. وتشعر بعض النسويات بأن شخصنة تجربة القهر تحصل على دفعة فريدة من نوعها من خلال التاريخ الشفاهي، كما أن منهج التاريخ الشفاهي يتيح أيضا للنسويات، الملتزمات -بالتركيز على أصوات النساء- فرصة مواجهة ما يحملنه من أساليب تفكير مسبقة وتصنيف للتجارب، كما يفسح المجال أمام أصوات النساء وغيرهن من الأصوات على تنوعها وتعددها للظهور. ويتم تسليط المزيد من الضوء على هذا الجانب من بحث التاريخ الشفاهي النسوي عند تناول دور الباحث أو الباحثة باعتبارهما مستمعين، وباعتبار المشارك أو المشاركة في البحث حكاءين.

إن الارتباط العضوي القائم بين التاريخ الشفاهي والفكر النسوي يتجاوز مسألة تضمين معرفة النساء ودراسة القهر، كما يتطرق إلى طريقة تصور الفكر النسوي للتجربة. وبصورة أكثر تحديدا، فإن ذلك الارتباط العضوي يتطرق إلى طريقة تصور كثير من النسويات للعلاقة بين الفاعلية (agency) والبنية (structure)، أو الفرد والمجتمع. وبما أن النسوية هي منظور سياسي بالضرورة، وأن قهر النساء وثيق الصلة بالتشكيل الاجتماعي للواقع، فإن حيوات النساء وتجاربهن متصلة ببنى رمزية ومؤسسية أشمل. ويتم استخدام التاريخ الشفاهي عامة بواسطة النسويات كطريقة لتجاوز الفجوة بين السيرة الشخصية للنساء وبين السياق الاجتماعي الذي تتم فيه كتابة هذه السيرة. فالتاريخ الشفاهي يصرح بإتاحة المجال أمام تسييس التجربة الفردية، وبالتالي يكون عميق الصلة بمشروع النسوية. وإذا نظرنا إلى الأمر بشكل مختلف قليلا فإننا نجد أن التاريخ الشفاهي قادر على الدمج بين العام والخاص، بين الفردي والمجتمعي، مع توضيح الزيف الكامن في تلك البنى الثنائية، والعلاقة بينها في الواقع المعيش. وتقدم أبحاث كريستين هيوارد (Christine Heward 1994) مثالا إمبيريقيا على كيفية استخدام النسويات للتاريخ الشفاهي كوسيلة لتحديد موقع الفرد داخل السياق البنيوي. وقد قامت بالتأريخ الشفاهي لامرأة أكاديمية بغرض دراسة عدم تمثيل النساء بالقدر الكافي من أجل تتبع ظاهرة "السقف الزجاجي" في المجال

الأكاديمي (الذي يشير إلى ظاهرة إيقاف المسار العملي الأكاديمي للنساء وعدم تمثيلهن بالقدر الكافي في المناصب العليا، . . . إلخ). ومن خلال منهج التاريخ الشفاهي تمكنت كريستين هيوارد من منح صوت لتجربة فردية تظل صاحبتها في بؤرة السرد، بينما تقوم في الوقت نفسه بدراسة مفهوم السقف الزجاجي، على سبيل فهم الظروف البنيوية التي تعمل النساء الأكاديميات في إطارها. ومن الأمثلة الأخرى على استخدام التاريخ الشفاهي لفهم تجارب الحياة الفردية داخل السياق الاجتماعي الأشمل هو ما نجده في أبحاث ريتشيل سليتر (Rachel Slater 2000) حيث قامت بالتأريخ الشفاهي لأربع نساء في مدينة كيب تاون بجمهورية جنوب أفريقيا. وتشير أبحاث ريتشيل سليتر إلى فائدة التاريخ الشفاهي في فهم كيف يتعرض الأفراد لقيود مختلفة من منطلق سياقاتهم الاجتماعية والاقتصادية. كذلك ترى ريتشيل سليتر إلى أن أبحاث التاريخ الشفاهي يمكن أن تفيد الباحثات والباحثين في التنمية والمهتمين بفهم أثر التغير الاجتماعي على سير الحياة الفردية. وتستعين بعض النسويات بالتاريخ الشفاهي لتوثيق كيفية اختلاف تشكيلات النساء وتمثيلاتهن للتاريخ مقارنة بالروايات الموثقة عن الرجال. ويمكن أن تأتي النتائج بمفاجآت، ويجب على المؤرخات الشفاهيات النسويات الاستعداد للتخلي عن افتراضاتهن المسبقة. وقد توصلت كاباساكال آرات (Z. Kabasakal Arat 2003) إلى ذلك بشكل مباشر في دراستها للتاريخ الشفاهي، إذ اكتشفت أن النساء التركيات روين أحداثا معينة من الماضي بشأن التعليم بنفس الطريقة التي رواها بها الرجال. وهو الأمر الذي قد يقلب بعض الفرضيات رأسا على عقب فيما يتعلق بغياب العدالة بين الجنسين في هذا السياق تحديدا، أو قد يكون مؤشرا على تغلغل الفكر الذكوري.

ويمكن أن تتخذ الافتراضات عدة أشكال، بل وكما رأينا عبر صفحات هذا الكتاب، فإن النسوية نفسها قد تشكلت بفعل افتراضات مختلفة في لحظات زمنية مختلفة. وتتحدث الباحثة النسوية شيرلي هيل عن إقصاء النساء الأفروأمريكيات عن النسوية حين نشأتها، كما تتطرق بالحديث إلى الطرق التي يؤثر بها هذا التاريخ وقضايا الاختلاف بشكل أعم في أبحاثها القائمة على المقابلات. فلننضم إذن إلى د. شيرلي هيل (Shirley A. Hill) فيما وراء الستار.

ما وراء الستار مع شيرلي هيل

العثور على صوتنا

إن عقودا من البحـوث في العلوم الاجتماعية التي عملت على تحقير و/أو تهميشـ الأفروأمريكيين واجهت تحديا كبـيرا خلال الستينيات من القرن العشرين بظهور سيل من الباحثات والباحثين الجدد الذين أصروا لا على إتاحة المجال للسود كـي يتحدثوا عن أنفسهم فحسب بل كذلك على احترام رؤى السود وتجاربهم المعيشـة. وقد برزت النساء السود من بين هؤلاء المطالبـين بالتغيير، إلا أن أصواتهن كانت كثيرا ما توضع في مرتبة أدنى من الرجال السود والنساء البيض. إن الادعاء السياسي السائد بأن النساء السـود يتمتعن بالقـوة و"الأمومة الحاكمة" خضـع للرفض الصريح من قبـل الزعماء الأفروأمريكيين، بينما كان يتـم استدعاء نفس التصور عن النسـاء السود لإسكاتهن وتشجيعهن على تبني وضع غير قيادي في حركة الحقـوق المدنية. وقد أدى ذلك إلى نشأة تصـور "ذكوري" متزايد للقهر العنصـري باعتبار الرجـال السود هم ضحاياه الأساسيـين. إن سياسات الجنـدر الشنعاء السائدة بين الأفروأمريكيين سايرت السياسات العنصرية الواضحـة في النسويـة الليبرالية. فقد جـاءت الموجة الثانية مـن النسوية مخاطبة في الأساس هموم النساء البيض من الطبقة الوسطى، كما حاولت أحيانا بشكل مقصود تجنب تلويث أجندتها بتناول قضايا القهر العنصري.

وقـد قاومـت النسـاء الأفروأمريكيـات هـذا التهميش الواقـع عليهن في حركـة تحـرر السـود والحركة النسويـة، ونتيجـة للجهـود البالغة التي بذلتهـا باحثات، مثـل بولا جيدينجنـز وجاكلين جونز، أخـذت حكايات

حيـاة النسـاء الأفروأمريكيـات في الظهـور التدريجي. وقـد جاء كتاب باتريشـا هيل كولينـز الصادر عـام 1990 عن "الفكر النسـوي الأسود: المعرفـة والوعي وسياسات التمكين" Black ، Patricia Hill Collins) Feminist Thought: Knowledge، Consciousness، and the Politics of Empowerment) ، بمثابـة عمل محوري في وضع إطار نظـري لتجارب النساء السـود. فقد رأت باتريشـا هيل كولينز أن النساء الأفروأمريكيات يتمتعـن بموقعية تتشكل بفعل موقعهن الاجتماعي وتراثهن الثقـافي وأوضاعهن المادية؛ مما مكنهن من رفض التقييم السلبي لحياتهـن والمتداول في المجتمع السائد. ولكـن التعبير عن هذا الموقع كثيرا ما كان صعبا، فقد أصاب الإحباط الباحثات والباحثين الأوفروأمريكيين الذيـن حاولوا تحقيـق ذلك، بسبـب الضغـوط القائمة عليهـم بضرورة استخدام الأدوات والنظريات ولغـة المجموعة المهيمنة، على الأقل إذا ما كانوا يريدون لأبحاثهم أن تلقى قبولا في الأوساط الأكاديمية. أما بالنسبة للكثيريـن من السـود، فقد جاءت نضـالات الحياة اليوميـة وصراعاتها تاركـة مجالا ضئيـلا لتطويـر و/أو التعبير عن موقعية محـددة قاموا هم أنفسهم بتحديدها وتوصيفها.

وقـد تطور التنظـير النسوي تطـورا ملحوظا، كمـا أنه يدعـم تبني فهم للتداخـل في أنظمـة القهر على أساس اللون والطبقة والنـوع. كما تقدم النسويـة إبستمولوجيات ومنهجيات كثيرا ما ساعـدت على منح الصوت لتلك الموقعية النسوية السوداء المميزة، وما زال هنالك خطاب مستمر دائر حول ما الذي يصوغ البحث "النسوي"، إلا أن من أهم أهدافه المحورية هو الإطاحة بالمسعى الوضعـي صوب "الحقيقة" الموضوعية، وذلك بالدعوة لاستخدام نطاق أوسع من مناهج البحث وخاصة تلك القادرة على تسهيل المسـارات الاجتماعية. كذلك قامت النسويات بنقد العلاقة التراتبية القائمة

عادة بين الباحثة أو الباحث وبـين موضوع البحث، مع سعيهن للتوصل إلى أساليـب تضفـي مزيدا من الديمقراطيـة على مسـار البحث. ويعني ذلـك لبعض الباحثات- وأنا منهـن- التأكيد على استخدام البحث الكيفي، وخاصة المقابلات والملاحظة بالمشاركة.

إن المدخـل النظري الأساسي في عملي البحثـي يقوم على مذهب التفاعلية الرمزيـة (symbolic interactionism)، وهـو مذهب يدفع الباحثين والباحثات إلى التغلغل داخل مسارات حياة الناس الذين يسعون لدراستهم وفهمهـم. وتتصل بذلـك المقاربات التي يشـار إليها على أنهـا تقوم على التشكيـل الاجتماعـي أو التأويـل، أي التي تـرى أوجه الواقـع والمعنى باعتبارهـا خاضعة للتشكيل الاجتماعي عـبر التفاعل الإنساني. كما اعتمد أيضا على نظريـة التقاطعـات (intersectionality theory) لتوضيح كيف أن قضايا اللـون والعرق والطبقة والنوع تعمل على تشكيل صياغة المعنى، فعلى سبيل المثال سعيت في بحثي عن: كيف تعامل الأسر السوداء أطفالها المصابـين بمرض فقر الدم المنجلي؟ (sickle cell disease) سعيا للتعرف على مسائـل مثل الرعاية الأسرية والقـدرة على الحصول على رعاية طبية، والسياسات العنصرية والأساطير التي تحيط بالمرض. فقمت بعقـد مقابلات معمقة مع الأمهات اللاتـي تم تشخيص أطفالهن بالمرض، وقضيـت وقتا في حضور اجتماعات الدعم والمؤازرة الجماعية. كما قمت بمقابلات مـع عاملين في مجـال الرعايـة الصحية والخدمـة الاجتماعية وقمت بملاحظة أوجه تفاعلهم مع هـؤلاء الأطفال وأسرهم. وقد مكنتني المادة التي جمعتها في هذا الصدد من فهم الاختلافات القائمة في التصورات الخاصة بالمرض مـن الناحية الطبية وفي المفهوم الدارج لدى العامة، كما فهمـت كيف تؤثر قيم كالأمومة في القرارات الإنجابية وكيف يؤثر النوع -أي نوع الطفل من ذكر أو أنثى- في الرعاية.

وقد عقدت ما يتعدى ربما 100 مقابلة ضمن عملي في مشروعات بحثية متنوعة، وتكون لدي تقدير لمزايا وعيوب عقد المقابلات والعمل الإثنوجرافي. ومن المشاكل التي أدركتها دوما، هو أن أتوجه إلى أشخاص ممن يعيشون حياة مزدحمة وموترة بطلب منحي شيئا من وقتهم للجلوس معي ومشاركتي تجاربهم، وأن يسمحوا لي بدخول المساحات الخاصة في حياتهم. ومن الأمور ذات العلاقة بالموضوع هو المقابل الذي يحصلون عليه نظير ما يمنحونني من وقت، ففي أحد المشروعات قدمت لكل مستجيبة ومستجيب مبلغ 10 دولارات؛ تعبيرا عن امتناني، فقبلها البعض شاكرا، بينما تردد آخرون في قبولها أو قالوا بأنهم سيتبرعون بها لإحدى الجهات التي تجمع تبرعات لمرضى فقر الدم المنجلي. وعادة أجد في نوعية الأبحاث التي أقوم بها أن المستجيبات والمستجيبين يطلبون مني (وإن كان ضمنيا) النصيحة و/أو الدعم، وهو ما أحاول تقديمه باهتمام وحذر. فمن أهدافي دوما أن أكون مستمعة مهتمة ومنصتة لما يقال، وأن أقبل بشرعية قيمهم، وأن أصارحهم بآرائي حين يطلب مني ذلك. إن تطوير موقعية ذاتية محددة هي مسألة تضفي على الفرد قوة، وأرى أن أفضل طريقة لتشجيع تلك الموقعية هي إعطاء الناس الفرصة لتأمل مواقفهم الحياتية والتعبير عن آرائهم والاعتراف بصحة تلك الآراء. وهو ما أرجو أن أنجح في تقديمه للمستجيبات والمستجيبين مقابل ما يقدمونه لي من عون.

النسوية وحسن الإنصات في مقابلات التاريخ الشفاهي

خلال مسار مقابلة التأريخ الشفاهي تقوم الباحثة أو الباحث بدور المستمع الفاعل، فنوعية الإنصات الذي يستدعيه هذا المنهج البحثي يتطلب استعداد الباحثة للتخلي عن رغبتها في السيطرة على مسار الحوار والإنصات الكامل والتام مع الالتزام والانتباه

لـكل ما يحيط بالحديث، مقارنة بطريقة الاستماع للحديث الجاري في المواقف العادية. وتوضـح باحثة التاريـخ الشفاهي النسوية دانا جـاك أن علينا أن "ننغمـس في المقابلة" (Anderson & Jack 1991، p.18) للتوصـل إلى المعنـى من منظـور المستجيبة أو المستجيب. فإننـا باعتبارنا باحثي التاريخ الشفاهي نستمع إلى الكثير من الأشياء بما فيها كيفية قيـام الراوي أو الراوية بخلق المعنى. فالمؤرخـة الشفاهية لا يقتصر دورها على جمـع المادة الموجودة مسبقا، وإنما هي جـزء من عملية صياغة وبناء المعنى التي تحدث أثناء قيام الراوية بحكي قصتها.

> في التراث الشفاهي فإن القرار بحكي قصة ما وطريقة حكي القصة وفهمها يكـون عمليـة ديناميكية حيويـة تتضمن الانتبـاه المتواصل لمـا "يدور في أذهانهم." ويمكننا أن نحصل على خلفية للموضوع تساعدنا على فهمه من خـلال الحوار والاستجابة وتكرار أمور معينة في أماكن وأزمنة مختلفة، وبما فيها من اختلاف في أسباب الحكـي. وتخضع تأويلاتنا للاختبار مع ازدياد معرفتنا بالحكاء أو الحكاءة، وكيفية استخدام كل منهما للحكاية على سبيل "صياغة المعنـى" (negotiate meaning) في كل مرة من مرات الحكـي. إن مفهوم صياغـة المعنى خلال الحكي في الـتراث الشفاهي هو مفهوم معروف لدى الفولكلوريين. (Schneider 2002، p. 51)

إن الباحثـات النسويـات اللاتي يوظفـن التاريخ الشفاهي في خدمـة الحصول على معلومـات من المستجيبين والمستجيبات، وفي الأطر المرجعية الخاصة بهؤلاء المستجيبين والمستجيبـات هـن باحثـات أقرب مـن غيرهـن إلى محاولـة الإنصـات إلى حكايات الآخريـن، لا بالتركيز على الكلمات فحسب وإنما على المسافات الفاصلة بين الكلمات، وعلى المعاني وعمليات صياغة المعاني، وعلى المشاعر بل وعلى الصمت.

إن لحظات الصمت هي ذات أهميـة خاصة للباحثات النسويات وذلك لعدة أسباب. والسبب الأساسي هو أن النسويات حريصات على الوصول إلى الصوت المخفي، وهو

سبـب أساسي يجعل الباحثـة تستعين بالتاريخ الشفاهي من منطلـق نسوي . فمن خلال الوصـول إلى الأصوات المخفية والتجـارب المقصية تحاول الباحثـات النسويات عادة الربـط بين سير الحياة الفردية وبين السياقات الثقافيـة والمؤسسية الأشمل، والتي تمثل خلفية لتلك التجارب الفردية، طبقا لما تؤكده باتريشا هيل كولنز-(Patricia Hill Col-lins 1990). وفي هـذا الصـدد نجـد أن الالتفات إلى ما هو غائب عـن حكاية الراوية يمكـن أن يشير للباحثة إلى مـا عايشته الراوية من نضال وصـراع . فعلى سبيل المثال يمكـن لمواضع الصمت أن تشير إلى الاختلافات القائمـة بين مواقف الراوية الصريحة والضمنية، وهي المواقف الناجمة عن العلاقة بين السياق الثقافي العام وبين سيرة حياتها بالإضافة إلى عملية إعادة سرد سيرة حياتها تلك. إن الحذف الصريح -مثلا- قد يشير إلى وجود فجوة بين ما تؤمن به المستجيبة وبين ما تشعر بأنه يجوز لها حكيه، وقد يأتي ذلـك نتيجة لتصورها عن المعايير والقيم الاجتماعيـة أو لشعورها بأن آراءها تتعارض مع الأفكار والمشاعر والسلوك المتعارف عليه، والذي قد يتصل بدوره بقضايا التشكيل الثقافي للنوع . إن المشروع البحثي في نظر الباحثات النسويات قائم على نية الوصول إلى الأصوات المهمشة وإلى رؤى فئة من الناس تم إقصاؤها إلى أطراف النظام الاجتماعي القائـم على أساس النوع . كذلك فإن الإنصات إلى مواضـع الصمت قد يشير أيضا إلى أن الفئـات والتصـورات المتاحـة لتأويل تجارب حياتنـا وتفسيرهـا لا تعكس في واقع الأمر النطـاق الكامل من التجارب الموجودة في العالم، كتجـارب النساء، والملونين، والمستبعدين على أساس الجنس . فالباحثة النسوية التي تتبنى مقاربة ما بعد حداثية مثلا، والمهتمة بالمنظومة الخطابية التـي تتحرك في إطارها، قد تستشعر أن الصمت يشير إلى أمر ما بشأن الثقافة عامة ووجود فجوة بين طرق تأطير التجربة وبين التجربة الخاصة بفرد خاضع لوضع معين على أساس الجنس أو النوع . وكما أوضح لنا البحث النسوي، فـإن المجتمع لا يوفر بالضرورة لـكل أفراده الأدوات الملائمة التـي يمكنهم بها التعبير الحـر الكامل عن المعنى الذي يحمله شيء مـا بالنسبة لهم. وهو سبب من الأسباب التي تجعـل الباحثات النسويات أميل إلى استخدام منهج التاريخ الشفاهي حين يلائم أهدافهن البحثيـة. إن الإنصات العميق لأصوات الأفـراد، وخاصة أولئك الذين طالما تعرضوا

للإقصاء من عملية إنتاج المعرفة، هو مسألة ضرورية لإنتاج قاعدة معرفية تكون أكبر حجما وأكثر تنوعا بشأن التجربة الإنسانية.

إن عمليـة تحولنـا إلى منصتـين حسني الإنصات، بـلا ميل منا لفرض الأحكام، ومنفتحـين على أمور كثيرة، هي عمليـة تتطلب مرونة من جهة الباحثة أو الباحث وقد تتضمـن التشكيك في المفاهيم والفئـات التي سبق تمسكنا بها، والتـي تشكل فهمنا للواقع الاجتماعي (Hesse-Biber & Leavy 2006).

وتستعـين الباحثـة النسوية أنطوانيـت إرانـت (Antoinette Errante) بتجربتها البحثية الشخصية لإلقاء الضوء على تلك القضايا في المقطع التالي من "ما وراء الستار". ففـي ذلك النص التأملي القوي تتحدث أنطوانيت إرانـت بالنقد والصراحة عن تشككها هي في الافتراضات التي سبق لها تبنيها، وهي تقوم بذلك من منطلق كونها باحثة نسوية وفي خضـم قيامها بمشروع في التاريخ الشفاهي وعلم الإثنوجرافيا. ومستعينة برحلتها التأمليـة المطاوعـة، تطالبنا لا بسمات التاريخ الشفاهي النسـوي، بل كيف يمكن للمرء تأمل ممارسة التاريخ الشفاهي دون أن تكون ممارسة نسوية.

ما وراء الستار مع أنطوانيت إرانت

التجربة والتاريخ الشفاهي

في الأول من يونيو/حزيـران 2001، وصلت ممتلئة بالحماس إلى مدينة بيرا في موزمبيق، حاملة أمتعة بحوالي 100 كيلوجرام من الوزن الزائد، ومستعدة لقضاء شهر في رحلة في وسط موزمبيق للقيام بالتأريخ الشفاهي لتجـارب الموزمبيقيـين التعليمية الكولونياليـة ومابعـد الكولونيالية. وقد دفعت مقابل أحدث أجهزة العمل من جهاز الفيديو ماركة سوني، وأجهزة

التسجيل ماركة مارانتـز، وحامل الكاميرا والبطاريات والأشرطة مبلغا يماثل ثلاثة أضعاف ثمن تذكرة الطيران، ولكن بدا لي الأمر يستحق تلك التكلفة نظرا لقضائـي حوالي ستة أشهر في الإعداد لتلك الرحلة، وحوالي عشـرة أعوام وأنا أحلـم بها. وكنت قـد قضيت الفترة منـذ شهر أكتوبر عـام 2000 في العمل الميداني تحضـيرا لكتاب عن التعليـم الموزمبيقي في فترة الاستعمـار ومابعد الاستعمار. وقد كانت فـترة ميمونة، إذ كنت قد حصلـت على منحة للقيام بذلك، كمـا أن موزمبيق كان يسودها السلام، وهـو ما كان يعني أنها أول مرة لي منذ رحلتي الأولى إلى موزمبيق عام 1989، والتـي يتـاح لي فيها الوقت الكافي والفرصـة المواتية للتنقل عبر المناطق الريفية بالسيـارة في أمان. وكنت آمل في جمع المزيد من التاريخ الشفاهي وخاصة مـن النساء. وقد كان معدل معرفة القراءة والكتابة بين الموزمبيقيـين السود يبلـغ 2% عند استقلال موزمبيق عـن البرتغال عام 1975، وبالتالي كان مقدار الحاصلين على تعليم مدرسي مؤسسي صغير نسبيـا. أما النساء فكانت فرصهن أقل مـن ذلك. ومع ذلك كنت حريصة علـى الحديث مع النساء عن "مرحلة التكويـن" والتي تشير أيضا في اللغة البرتغاليـة إلى التعليم أو النشأة بمعناهـا الأوسع. فقد أردت التعرف على كيفية معايشتهن للاستعمار والثورة والسنوات التي أعقبت الاستقلال.

وهكذا كنت متحمسة جدا ومتطلعة إلى لحظة وصولي إلى بيرا، حيث كنت سألتقي هناك بسائقي والمترجم/المرشد. وقد كان مرشدي رجلا متقدما في السن على معرفة واسعة بجغرافية ولغات الجزء الأوسط للبلاد بالإضافة إلى معرفتـه بكل الزعماء والقادة المحليين. وقـد كان بالغ الأهمية بالنسبة لي لأنني كنت بحاجة لشخص موضع ثقة الزعماء والسكان المحليين ليقوم بدوره بتعريفـي عليهم وضمان أمانتي. وقد كان في نيتي قضاء حوالي 4 أسابيع متنقلة بصحبته في شمال وسط موزمبيق ووسطها.

ومـع خروجي من مطار بيرا محملة بأمتعتـي التي يزيد وزنها على 100 كيلوجـرام قابلت الشخص الذي كنت على صلـة مسبقة به بشأن ترتيباتي في موزمبيق، فأخبرني بكل أسى أنه تم نقل مرشدي إلى المستشفى في الليلة السابقـة على وصولي مصابا بالتهـاب في الزائدة الدودية. وهكذا وجدت نفسـي بلا مرشد ومترجم، وبلا رحلـة برية. وبذلت قصارى جهدي في العثـور على مرشد آخر أو وسطاء آخرين، ولكن دون جدوى. وبسبب تكلفة الزيادة في وزن أمتعتي كنت قد اشتريت تذكرة سفر بسعر مخفض، بمـا يعني عدم قدرتي على الرحيل مـن بيرا قبل مرور 3 أسابيع. ونظرا للنفقـات والوقت الذي كنت قد قضيتـه مسبقا في الإعداد لهذه الرحلة كنت أعلم بأنه سيصعب علي تنظيم رحلة أخرى.

فمـا العمل؟ حملت نفسي التعسة وتوجهت إلى بار يطل على الشاطئ الذي يواجه الشقة التي أقمت فيها في ضيافة أحد الأصدقاء. وقد كان البار مكانا شعبيـا معروفا، وكنت قـد زرت صديقي عددا من المـرات يكفي لتعرفي على بعض الوجوه الأليفة. فكنا نجلس، ونتأمل غروب الشمس، ونتبادل على مدى ساعات الضحكات والحكايات.

فقـد أدركت فجأة أنني إذا كنت أرغب في محادثة الناس فهنالك الكثيرون منهم حولي، وهكذا استدرت نحو الشابة الجالسة إلى جواري قائلة "أهلا، أنـا أنطوانيت". ومن هنا بـدأت "مقابلات شاطئ بـيرا" مع أي شخص مستعـد لمبادلتي الحديث. فمنهم ندلاء البار، ومنهـم أصدقاء لرفاق البار ممـن أخبروا أصدقاءهم بكـوني محل ثقة. ونحيت جانبـا جهاز التسجيل الكبير الحديـث ليحل محله جهاز التسجيل الصغير ماركة سوني، فلم يكن هنالـك مكان علـى المناضد لجهاز التسجيل ماركـة مارانتز جنبا إلى جنب أطباق الدجاج المشوي.

وقد كانت معظم النساء اللاتـي تحدثت إليهن من سكان المناطق العشوائية المحيطـة بمدينة بيرا، ولم تتمكـن غالبيتهن من تجاوز السنـة الرابعة من التعليـم الأساسي. وقد تحول برنامج الحديث مـدة ساعتين إلى حوارات مدتهـا 5-4 ساعـات. وكان يمتد بنا الحديث إلى العصـر. ومن بين من التقيـت "دينـا"، ولم تكن تتذكر مـن الثورة سـوى أن والدتها ماتت قبل الثورة بفـترة قصيرة وأن مدرستهـا البرتغالية الحبيبـة، والتي صارت أقـرب إلى أم بديلة بالنسبة لها، اضطرت إلى الرحيل عائدة إلى البرتغال بصحبـة زوجها الرجل العسكري. "الثـورة لا تعني لي سوى أني فقدت والدتـين." قالتها وهي تهز كتفيها. وكانت والدتها قد أصبحت زوجة من الدرجة الثانيـة لشقيق زوجها بعد وفاة والد دينـا، كما تذكرت كيف أنها هربت من حياة الخدمة في بيت عمها إذ كانت تهرب مع رجال، منهم من كان يضربها ومنهم من كان يسرقهـا. وأخبرتني بوضوح عن اختيارها مواعـدة الرجال البيض فقـط، وعما كانت تحصل عليـه منهم وما كانوا يحصلون عليه منها. وكانـت من بينهن جوانا، وهي امرأة كانت والدتها أفريقية ووالدها يونانيا متزوجا مـن خالتها ووالدتها، وتذكرت كيف أن والدتهـا أخفت عـن والدها قيامها بفرض كافة الطقوس التقليدية الخاصة بالانتقـال من الطفولة إلى ما بعدها عليهـا. كما وصفت طفولتها باعتبارها عالما ضبابيـا غير مرئي سوى للنساء المقيمات في مجمـع عائلتها السكني. وتعرفت على الاختـلاف القائم بين تعدد الأزواج في المدن (وهي الخيانة الزوجية الناتجة عن خيلاء الرجال) وبين تعدد الأزواج في الريف (وهو نظـام عملـي واقتصادي). ولم تقتصـر هؤلاء النساء علـى سرد قصص حيواتهن، بل بذلن جهدا في شرحها لي - أي التنظير حول حيواتهن.

وكنت كل يـوم أرسل تحياتي للزائدة الدودية التـي أعيت مرشدي. وقد

فرض علي الوضع مواجهة غـروري الشخصي، رغم ميولي النسوية، فمـاذا غير الغـرور يجعلني أندهش مـن قدرة هؤلاء النسـاء على التعبير عـن نظريات بالغة العمق والتعقيد حول تجاربهن المتصلة باللون والعرق والطبقـة والنـوع؟ فمن الواضح أننـي كنت أحمل في أعماقـي قناعة بأن النظريات تتشكل في رحاب الجامعات وبواسطة حاملي الدرجات العلمية الرفيعـة، وأن "المصـادر المحورية مـن الأشخاص" يصنعـون التاريخ (وأننـي أعرفهم) وأن علمـاء الاجتماع يحتكرون عمليـة تعريف أو فهم العـالم. وقد علمت في بيرا أن الأحـداث التاريخية الكبرى، كالثورات، ليسـت بالضرورة من الأشياء التي تغير حيـوات الناس، فبالنسبة لغالبية مـن قمت بعقد مقابلات معهـم كانت الثورة والاستقـلال غير ذات أهمية قصـوى. فحتى ذلـك الحين كانت معظم مصادري مـن الأشخاص ممن وقـع اختياري عليهم بناء علـى تجاربهم في المدارس الاستعمارية أو ما بعـد الاستعمار، ولكن في بلـد لا يعرف فيه القـراءة والكتابة سوى 2% مـن إجمالي السكان عند الاستقلال (عـام 1975)، كانوا جميعا "مصادر محوريـة" من حيث مشاركتهم الفاعلة في الثـورة. أما عينة شاطئ البحر العشوائيـة فقد كشفـت لي إلى أي حـد كان منظوري مائـلا بفعل المنطق المتواتـر القائل: المصادر المحورية هـم الأشخاص المحوريون في حدث ما (الثورة) والـذي اعتبرته أنا حدثا محوريا. وهكـذا كفانا نظريات كبرى حول الثورة.

فكيف لهـذه الحكاية الخارجة من العمل الميـداني أن تعكس منظورا نسويا للتاريـخ الشفاهي؟ إن السؤال الصعب بالنسبـة لي ليس في كيفية تصورنا لممارسـة التاريخ الشفاهي مـن منظور نسوي، وإنما هـو كيفية تصورنا لممارسة التاريخ الشفاهي ممارسة غير نسوية؟ فالتاريخ الشفاهي عضوي

وحميم، ويكشـف في نفس الوقت عن سلطة الفرد الواحد وسلطة الجمع، ومدى ما في تجاربنا الفردية من تفرد بالإضافة إلى طرق الارتباط القائم بين تجاربنا معا. ويمكن لدراسة تاريخ شفاهي جيدة أن تضمن لك النشر، بل وربما تجعلـك من ضيوف برنامج "جود مورنينـج أميريكا" (صباح الخـير يـا أمريكا). ولكـنَّ هنالك ناتجا معينـا من ممارسة جيـدة للتاريخ الشفاهـي وهو تعريفك بأشخاص يعلمونك الكثـير، لا باعتبارك باحثة أو باحثـا فحسب، وإنما باعتبـارك من البشر. فكل منهـم سيساهم في سيرة حياتـك أنت وفي الحكايـات التي قد تحكيها يوما ما في حـال تم عقد مقابلة شخصية معك في إطار مشروع للتاريخ الشفاهي يقوم به غيرك.

لقد كنت على علم بكل ذلك عند وصولي إلى بيرا، ولكني رحلت عن بيرا حاملة درسا أدى إلى تعميق تقديـري لتعددية الأصوات وأساليب معرفة العالم، وهو درس مفاده: لا تدعي نظرياتك وسنوات دراستك تتدخل في قدرتك على تقدير سلطة التجربـة – تجربتك وتجارب الآخرين. فالعمل الميـداني لا يمضي أبدا في الاتجاه المتوقع، ولكـن قومي بالعمل الميداني في كافة الأحوال.

وكما نرى في هذا المقطع، فإن التاريخ الشفاهي النسوي يتطلب إنصاتا معينا وشاملا مـن قبل الباحثة أو الباحث. وترى دانا جاك أشيـاء معينة يجب على المؤرخة الشفاهية النسويـة الإنصات إليهـا. أولا، يتعين علـى الباحثات النسويات تحديـدا التوقف أمام "اللغـة الأخلاقية" (Anderson & Jack 1991، 19) لدى المستجيبين والمستجيبات، وهي اللغة التي تشير إلى تعليقات تكشف عن تقييم الذات:

علـى اختلافهـا في نبرة الحديـث، إلا أن تلـك المقولات التـي تقيم الذات

أخلاقيا تتيح لنا فرصة تأمل العلاقة بين تصور الذات وبين المعايير الثقافية، والعلاقة بين ما نراه نحن ذا قيمة وبين ما يراه الآخرون ذا قيمة، والعلاقة بين ما يفرضونه علينا من تصرفات وبين إحساسنا بأنفسنا حين نقوم أو نمتنع عن القيام بما يفرضونه علينا من تصرفات. (Anderson & Jack 1991، p. 20).

إن ما تشير إليه دانا جاك بمسمى اللغة الأخلاقية قد يشير بالنسبة للمستمع الجيد إلى مجموعة من القضايا، ولكن موضع الاهتمام النسوي يتمثل في المقولات التي ترد على لسان المستجيبة في المقابلة الشخصية، وهي تلك المقولات التي تشير إلى السياق الثقافي الذي تعيش فيه. فعلى سبيل المثال فإن الشعور بالحرج عند الحديث عن بعض مكونات الجنسانية قد تكشف أشياء عن الثقافة العامة. وبصورة أكثر تحديدا، فإن المرأة التي تتحدث عن عدم الرضا الجنسي في علاقتها برفيقها، وهو شعور ربما لم يكن ينتابها في علاقتها بعشيقها، قد يعبر عن السياق الأبوي الذي يحيط بالجنسانية، والأنماط والمعايير الجنسية التي تؤكدها الصيغ الذكورية الجنسية الغيرية لمفهوم الجنسانية.

كما نجد دانا جاك تشجع أيضا الباحثات النسويات على الإنصات لسماع "المقولات العليا" (Anderson & Jack 1991، p. 21) أو تلك اللحظات التي ترد في المقابلة الشخصية حيث تتراجع فيها المستجيبة للمقابلة عن كلامها لتتوقف متأملة بشكل نقدي ما سبق لها قوله:

المقولات العليا تنبهنا إلى وعي الفرد بالتناقض داخل الذات المستجيبة للمقابلة عن العناصر التي تستخدمها في مراقبة أفكارها، كما يتيحون فرصة ملاحظة كيف يقوم الشخص بتوفيق المشاعر والأفكار بما يتواءم مع معايير اجتماعية معينة. (Anderson & Jack 1991، p. 22).

إن مثل هذه المقولات يمكن أن تكـون ذات أهمية تحديدا بالنسبة للباحثات النسويات في معرض دراستهن للتحيز الجنسي والتفرقة العنصرية أو جانب من جوانب الحياة في عـالم يسوده تمييـز على أساس النوع أو العرق واللون. فعلـى سبيل المثال يمكن لأحد التصريـح بمقولـة يراها فيما بعد عنصريـة أو متحيزة جنسيا أو تعبر عـن فوبيا المثلية. ويمكـن للشخص حينها التوقف أمام المقولة لتوضيحها أو مراجعتها أو وضعها في سياق معين، وهي لحظات قد تكشف للباحثـة النسوية المنتبهة ليس فقط مشاعر المستجيبة تجاه أمـر ما، بل ورأيها فيما يفترض أن تكون عليـه مشاعرها في إطار المعايير الاجتماعية السائدة.

كذلـك تدرك النسويات أن اللغة تساعد علـى تشكيل التجربة الاجتماعية وبلورتها، بـل إن اللغة قد قامت في الواقـع بتشكيل كل منا. ولذا فإن اللغة التـي تستخدمها النساء في سـرد حكاياتهـن تكشف عن جانبين، فـلا تقتصر فقط على سـرد قصص حيواتهن الشخصية بل وكيفية تشكل قصة الحياة الشخصية بالواقع الاجتماعي.

وبالإضافـة إلى مضمون المقابلة الشخصية يتعين علـى الباحثات والباحثين الالتفات إلى الشكل الذي يتم به سرد المضمون. فالناس على اختلافهم يتحدثون بطرق مختلفة، وبالتـالي فإن الإنصات إلى الطريقة التي تصـوغ بها المستجيبة حكايتها يمكن أن يكشف أيضـا عن معلومات مهمة. فعلى سبيل المثال نجد أنه في المجتمع الأبوي يتم جعل أشكال التواصـل الذكوري هي المعيار السائد، وبالتـالي تؤثر في كيفية سرد الناس لحكاياتهم. فيجب علـى الباحثات والباحثين الانتباه لأساليب التفكـير والمعايير والحديث الذكورية جنبـا إلى جنب اللغة المتحيزة جنسيا. كذلك يتعين على الباحثات النسويات الانفتاح على أساليب التواصل النابعة من أساليب التفكير والمعرفة النسائية.

علـى الرغم من تكيف بعض الراويـات من النساء مع نظام عقد المقابلات الشخصية الذكوري، والذي يتعين علـى المؤرخات الشفاهيات اكتسابه،

فإننا لـن نحسن الإنصات إلى ما تعتبره النسـاء جوهريا بالنسبة لحيواتهن إلا إذا اعترفنا بشرعية وجود سياق للتواصل الاجتماعي النسائي في إطار التأريـخ الشفاهي. . . . فلن نتمكن مـن الإنصات لما تعتبره النساء ذا قيمة ولا تأويله إن لم نعرف كيف نتأمل وكيف ننصت وكيف نتحدث مع النساء باعتبارهـن نساء. إننا في حاجـة أولا إلى الإدراك الواعي بكيفية تواصل النساء بشكل شخصي وفيما بينهن. (Minister 1991، p. 31-32)

كمـا أنه من الضروري علـى الباحثات النسويات المنخرطـات في أساليب المقابلات الشخصية في التاريخ الشفاهي عدم تكرار أشكال التحيز القائمة داخل البحث النسوي من خلال إضفاء سمات الجوهرية على تجربة النساء. ومن المهم عدم افتراض وجود نوع معين من الحديـث تشترك فيه النساء بنفس القدر الذي لا يجب علينا أن نفترض وجود تجربـة أو منظور واحد مشـترك. ومن هذا المنطلق يتعين علـى المؤرخات الشفاهيات النسويات الانتبـاه إلى الطرق المختلفة التي تصوغ بهـا الراويات المختلفات تجاربهن، وبمعنـى آخر يجب علـى المؤرخـات الشفاهيات النسويـات تأمل الأمـور عبر صور الاختلاف والانفتـاح على أساليب التواصل المختلفة إذا كنـا بصدد الكشف عن مواطن المعرفـة التي سبق خضوعها للاستبعاد. والنسويـات اللاتي يكثر عملهن من منظور ما بعد حداثي ومتعدد الثقافات ومنظور العالم الثالث شغوفات بفهم تجارب الفئات المهمشة في المجتمع. فكيف أثر وضعهن داخل ثقافة ما على تجارب حياتهن كما يؤولنها؟ وكيف أثرت تلك التجارب بدورها في أسلوب السرد لديهن؟

يمكـن لأنماط الحديـث في الرواية الشفاهية أن تكشف عـن المكانة الاجتماعية وعن العلاقـات ما بين الأشخاص، والتصورات عن اللغة والذات والعالم. وفي حالة النساء السود يجب أن نسأل أنفسنا عما تكشفه أنماط السرد لديهن بشأن حيواتهن. فكيف تؤثر تجاربهـن الفريدة علـى الطريقة التي يسـردن بها قصص حياتهـن؟ (Etter-Lewis، 1991، pp. 44-45).

وعنـد عقـد مقابلة شخصية في إطار التاريخ الشفاهي، نجـد أن من بين ما قد تتوقف أمامه الباحثات النسويات ما يلي:

- ما الذي تشير إليه مساحات الصمت في حديث المستجيبة؟ ما الذي لا تقوله، ولماذا؟
- مـا أنـواع الأحـكام الأخلاقيـة التي تنتمـي إلى كيفية حديـث المستجيبة عـن حياتها وتجاربها؟ وهل تتوقف لتأمل التعليقات أثناء حديثها وسردها لحكايتها؟
- ما الفئات التي تستخدمها والتي تمثل أساسا لطريقتها في التفكير والحكي؟ فعلى سبيل المثال، مـا الأفكار بشأن المعايـير الطبيعية والجنسانية والنـوع وغيرها التي تشكل طريقة تفكيرها؟
- كيف تعمل الأعراف والمعايير الاجتماعية بشأن النوع على تشكيل طريقة تفكيرها؟
- ما أسلوب حديث المستجيبة؟ هل تستخدم اللغة الدارجة أو لغة أحتاج إلى استيضاحها؟ هل تتحدث بترتيب زمني للأحداث أم في شكل سلسلة من الحكايات المنفصلة أم تتبع بنية سردية أخرى؟ وما الذي يكشفه أسلوب حديثها عن منظورها؟
- مـا إحساسي تجاه ما تقوله المستجيبة؟ ما الذي تخبرني به أدوات استشعاري الداخلية عن لحظات الصمت ومواضع الحذف والتأكيد وما شابه ذلك؟

وبينمـا دأبـت الباحثات النسويـات على استخـدام التاريخ الشفاهـي كمنهج لسماع حكايـات النساء، ففي المقطع التـالي من "ما وراء الستار" تحملنـا كريستين أندرسون لنتأمـل من منظورها كيفيـة استخدامها للتاريخ الشفاهـي في دراسة مجموعة معينة من الرجـال الذين تختلف هي عنهم من عدة جهات. وتتنـاول كريستين أندرسون في هذا المقطـع المليء بالتحديات قضايا مثل ديناميكيات النوع والسلطة في العمل البحثي، وبناء المعرفة عبر الاختلاف، والتحديات الكامنة في مراجعة الافتراضات المسبقة.

ما وراء الستار مع كريستين ل. أندرسون

تنظر النسويات منذ فترة طويلة إلى التاريخ الشفاهي باعتباره وسيلة لإتاحة فرصة الحديث أمام من خضعوا للإسكات. فما المعنى إذن من وراء استخدام هذا المنهج مع من يتم اعتبارهم فعليا، من وجهة النظر النسوية، بأنهم القائمون بإسكات الغير؟ هذا هو السؤال الصعب الذي واجهته أثناء قيامي بمقابلات تاريخ شفاهي مع رجال صدرت عليهم أحكام بحضور برامج للتأهيل والعلاج بسبب الأذى الذي أوقعوه برفيقاتهم أو زوجاتهم. هل كان في استطاعتي الإنصات إلى حكايات رجال قاموا بأفعال تثير اشمئزازي وخوفي؟ وما الذي يمكنني تعلمه من تاريخ حياتهم؟

وقبل أن أبدأ في المقابلات الشخصية كنت أتوقع أن تسود المقابلة ديناميكيات النوع (بوصفي امرأة تعقد مقابلات شخصية مع رجال)، وأذكر اليوم بشيء من الخجل كيف أني وضعت في إصبعي خاتم زواج "زائف" خلال المقابلات الأولى بسبب خوف -في غير موضعه- من أن يدعوني أحد المستجيبين للخروج معه. ولكني وجدت أن قضايا اللون/العرق والطبقة والسلطة المؤسسية كانت هي الأهم في ديناميكيات الحوارات التي عقدتها مع هؤلاء الرجال. فقد كنت أنا أتعامل مع جهاز التسجيل واستمارة الموافقة على المقابلة المطبوعة على ورق مبهر. وكنت أنا التي ألقي بالأسئلة، كما كنت أنا الممسكة بمبلغ 30 دولارا التي قدمناها لهم على سبيل "المكافأة" (أي "الحافز") مقابل المشاركة في الدراسة. وقد كان الرجال الذين تحدثت إليهم، في معظمهم، يصارعون البطالة والفقر وتناول المخدرات. وقد كنا نتحدث وبيننا اختلافات قوية من اللون/العرق وفي بعض الحالات كانت الاختلافات في اللغة الأم. وهي اختلافات كانت لها تبعاتها.

وقد تعلمت من هـذه الحوارات أن السلطة معقـدة. فالنسويات يناضلن على مـدار الثلاثين عاما الماضية من أجل فهم العلاقـة بين هياكل السلطة، وفهـم التفاعلات (وأحيانا التناقضات) في أنظمة السلطة الأبوية والعنصرية والطبقيـة وتلك المتعلقـة بالجنسانية الغيريـة. وكان الدرس الأكثر أهمية بالنسبـة لي هو أنه يمكن للبشر أن يتمتعوا بالسلطة المؤسسية أو الهيكلية دون أن يدركـوا ذلك، ففـي اتصالاتي التي تمت مع العديد مـن هؤلاء الرجال كنـت أتمتع بامتيازات هيكلية بفعل انتمائـي للطبقة الوسطى ولوني الأبيض وموقعي المرتبط بالمؤسسة الجامعية، وهي امتيازات ساعدتني على الشعور بالراحـة والتحكـم في مسار المقابلـة الشخصية. أما الرجـال الذين تحدثت معهـم فكانوا كثيرا ما يبدون مترددين وغير واثقين من أنفسهم وحريصين على مساعدتنـا في مشروعنا. وحين تأملت كيـف أن تجربة عقد المقابلات الشخصيـة جـاءت مختلفة عـن توقعاتـي، بدأت أفكـر في السلطـة الذاتية والموضوعيـة، وكيـف يفوتنا إدراك تعقيدات السلطة عنـد التفاتنا إلى نوع واحد فقط مـن السلطة. فما الذي جعلني أظن بدايـة أنني سأشعر بالضعف بالنسبـة لهؤلاء الرجال؟ فحين ركزت على التحليل على أساس النوع كنت حينها أفكر في نفسي باعتباري امرأة بالنسبة لرجال يتسمون بالعنف. وحين ركزت على التحليل القائم على أساس الطبقة أو اللون، أدركت حينها أنني أشعـر بالقـوة والسلطة خلال تلك المقابلات لأني كنـت فعليا في حمى سلطة مؤسسات أعلى طبقيا. وكانت المقابلات مع الرجال الذين يضربون النساء تعقـد أثناء ساعات النهار في مكاتب مقـار برامج علاج العنف المنزلي، في وجـود موظفي البرنامج على مقربة منـا. وعلى الرغم من أنه لم يكن "في مكان خاص بي" فإنه كان مكانا أشعر فيه بالأمان والراحة، وهو ما لم يكن ينطبـق على غالبية الرجال الذين عقدت مقابلات معهم ممن كانوا مجبرين على حضور برامج العلاج والتأهيل تلك.

وهو نفس الدرس الـذي تعلمته من حكايات هؤلاء الرجال عن العنف في علاقاتهـم، فهـم لم يكونوا مدركـين للسلطة التي يتمتعـون بها بفضل ذكورتهـم، فقـد كانـوا ينظـرون إلى أنفسهم علـى أنهم ضعـاف تتحكم نساؤهـم فيهم وضحايـا لنظام القضاء الجنائي المتحيـز. إن هذا الإحساس الذاتـي بالضعف وانعدام السلطة أعماهـم في حالات كثيرة عن قيامهم هم أنفسهم باستغلال السلطة التي يتمتعون بها عند اعتدائهم على نسائهم. ولم يروا وضعهـم المميز في سياق علاقاتهم الشخصيـة إلا من خلال المنظور النسـوي بما أضفاه مـن إشكالية على العلاقة بين مسألـة النوع والعنف. ولكن في نفس الوقت فإن الملاحظات النسوية بشأن كيفية عدم إمكانية فهم مسألة النـوع بعزلة عن أنواع أخرى من السلطـة ساعدتني على إدراك أن تجـارب هؤلاء الرجال مع السلطة كانـت تختلف تبعا لمواقعهم الطبقية والعرقيـة. وهكـذا تعلمت في نهاية الأمـر أن الملاحظـات النسوية بشأن التعقيدات الكامنة في السلطة من حيث تشكيلها لحيوات النساء هي تعقيدات يجب استخدامها أيضا لمساعدتنا على فهم حيوات الرجال.

العمل المشترك والسلطة والتمكين في التاريخ الشفاهي النسوي

يعتمـد التاريخ الشفاهي على البناء المشترك للمعرفة ما بين الباحثة أو الباحث والراوية أو الـراوي، إلا أن مـدى تحقق العمـل المشترك في مراحل مختلفة مـن المشروع البحثي وبالتالي فالمعرفة الناتجة عنه تكمن في الأسس الإبستمولوجية المعرفية للمشروع. ونجد أن الباحثـات النسويات يوجهن اهتماما خاصـا إلى تلك المسائل لاهتمامهن بتجليات السلطة في المسـار البحثي ودور علاقات القوى في تشكيل عملية بناء المعرفة. ويقدم التاريخ الشفوي للباحثـات النسويـات أسلوبا لخلخلـة مركزية السلطـة تبعا لخطة عمل الدراسـة البحثية،

وهـي خلخلة تلقى صداها لدى كثيرات من الباحثـات النسويات، وخاصة أولئك المهتمات بالإمكانيات التحررية وظروف التمكين في الممارسة البحثية والبناء المشترك للمعرفة.

فكيف ترى النسويات اللاتي يمارسن التاريخ الشفاهي المسائل التالية:

- هـل تمتد عملية المشاركـة في تشكيل عملية جمع المادة العلميـة فتستمر خلال عمليتي التحليل والتمثيل؟
- من يضع بصمته النهائية على الحكاية التي تتبلور وتنتج عن تلك العملية؟
- من يملك السلطة على الرواية؟
- مـا الذي تعنيه "السلطة المشتركـة" في الممارسة العملية؟ وهل هي ممكنة الحدوث أو حتـى مرغوبة دائما؟ ومـا الاعتبارات الأخلاقية التي تلعـب دورا عند تحديد مدى التشـارك في العمل البحثي؟ وما أثر ذلك التعاون المشترك على الباحثة والراوي أو الراوية والبحث نفسه؟
- مـن يملـك السلطة على المادة العلميـة؟ وكيف نتوقف أمام صياغـة المعنى والتعاون المشترك في بناء المعرفة؟

إن الإمكانيـات الكامنة في التعاون المشترك في التاريخ الشفاهي ليست مجرد اختيار للمنهجيـة المتبعة، وإنمـا تحمل معها حزمًا مـن السياسات ومجموعة مـن الاعتبارات الأخلاقيـة المتصلة بتمكـين كل ذات في البحـث بالإضافة إلى الجانـب السياسي للبحث النسوي. إن مسألتي العمل المشترك والسلطة تتناولان في نهاية الأمر كيفية بناء الرواية، ومـن هو الطرف الذي يملك تلك الرواية وكيفية تمثيلهـا. وأثناء عملية السرد والحكي تتـم صياغة المعنى من خلال قيـام الباحثة أو الباحث بحسن الإنصـات وسبر الأغوار (probing). ويمكن للعمل المشترك أن يستمر خلال التحليل والتمثيل، وهو أمر يتعين علـى المؤرخات والمؤرخين الشفاهيين التوقف أمامه. ونجد أن بعض النسويات يضعن

مسألة التأليف المشترك للنص باعتباره أولوية خلال كل مراحل المشروع البحثي نظرا لالتزامهـن بالالتفات إلى "صـوت" المشاركين والمشاركات في البحـث واسترجاعه، وكذلـك لالتزامهم بمواجهة العناصـر والفئات والمفاهيم والتصـورات التي يستخدمنها في صياغـة المعنى. ومن هنـا فإن جينيفر سكانلون تدعو لأبحـاث تتم مع النساء لا عن النساء باعتبارهـا وسيلة لتمكين الراويات، كما ترى أنه يجب على الباحثات النسويات خلـق منهجية تقوم حقا علـى "الأخذ والعطاء" يتم فيها توفير الوقـت أو المال أو غيرها من الإمكانيات مقابل مشاركتهن في البحث (Jennifer Scanlon 1993، p. 640). وهنالـك نسويات أخريـات، ممن يرتكز اهتمامهـن على تسييس تجـارب الأشخاص المهمشـين، ربما يجـدن قيمة كبيرة في الحفاظ على الصـوت السلطوي في عملهن، بما يمكنهـن من تنـاول النص المروي ضمن مناقشتهن للهمـوم النسوية. ومن المهم في هذا الصـدد أن نفهـم نقطتين مفادهما الآتـي. أولا: إن العمل المشـترك يتم في صورة خط ممتـد ومتواصل، فكل مشروعات التاريخ الشفاهي تتطلب عملا مشتركا، ولكنَّ هنالك درجـات وطرقًا متنوعة يمكن لهذا التنوع أن يظهر بها. وثانيا: إن النسويات تحديدا، والملتزمات منهن باسترجاع تاريـخ النساء والتغيير الاجتماعي والسياسي، يعانين من التوتـر الحقيقي القائم بـين منح الصوت والسلطـة للروايات مع قيامنـا في الوقت ذاته باستخدام نظرتنـا النسوية وعناصر الفهم النسوية في محاولـة لإحداث تغيير اجتماعي إيجابـي. كما تذكرنـا آن ماري تيرنبول أيضا بأن العمـل المشترك والرقابة عنصران متداخلان فيما بينهما تداخلا يصعب فصله:

> عنـد الإعداد لمقابلات التاريخ الشفاهي والقيام بها يكون العمل البحثي منذ بدايته واقعا في شرك قرارات معقدة فيما يتعلق بالرقابة والعمل المشترك. إن كميـة ونوعية المعلومـات الخاصة بالبحـث، والتي سيتـم تناولها مع الطـرف الآخر من المقابلة الشخصية قبـل عقدها، قد تتباين تباينا بالغا بين مشـروع وآخر. ومن الأمور التـي قد يكون لها تداعيـات مهمة في هذا

الصـدد هو مدى المعلومـات التي تعتبر ذات أهميـة لتبادلها مع المشاركين والمشاركات في البحث بشأن المعرفة بالأصول الفكرية للبحث أو التفاصيل الدقيقـة للمنهجية المتبعة فيـه. إن الإعداد للمقابـلات الشخصية ومحتواها وتوقيتهـا هي مسائل تثير في حد ذاتها مسألتين أخريين، أولاهما هي كيفية التعامل مع موضوع المقابلة قبل وأثناء المقابلة الشخصية، وثانيهما هي إلى أي مـدى قام أحد طـرفي المقابلة الشخصية بصياغة شـكل المقابلة وتوزيع الأدوار فيهـا مـن حيث -علـى سبيل المثـال- موقعها وزمانهـا واختيار مضمونهـا أو التأكيـد علـى جوانب بعينهـا في محتواهـا. (Annmarie Turnbull 2000، p. 19).

فكما هو واضح، فإنه عنـد التفكير في المسائل المتعلقة بالعمل المشترك نجد أنفسنا أمام اعتبـارات أخلاقية واعتبـارات عملية واعتبـارات سياسية، بالإضافـة إلى القرارات العديدة التي يتم اتخاذها أثناء المسار البحثي والتي قد لا يدرك الباحث أو الباحثة قيامهما بها أو قد لا يعتبرانها ذات أهمية.

وتقدم لنا دراسة كاثرين بورلاند مثالا ممتازا ونموذجا أعتبره كلاسيكيا على التوتر القائـم بين الرؤية النسوية المكتسبة والرغبة في بناء معرفة تعبر بصدق عن فهم الراوية لقصة حكايتها الذاتية. فقد قامت كاثرين برولاند بمشروع مقابلات شخصية في التاريخ الشفاهـي عقدتها مع جدتها. وقد مرت بتجربة صراع داخلي في مرحلة التأويل إذ إنها شاركت جدتها في تأويلاتها الأولى للمقابلات. فقد قامت الباحثة هنا بقراءة حكاية جدتها من منظور نسـوي معاصر، وبالتالي اهتمت اهتماما نقديـا بالخلفية الأبوية لقصة حياة جدتها. ولكن المستجيبة، جدتها بياتريس، لم يسعدها أن ترى حكايتها مؤولة باعتبارها نضـال امرأة من أجل الاستقلالية في بيئة ذكوريـة، وكتبت رسالة لآن ماري تخبرها بـأن حكايتها ضاعت وأن آن ماري قد استحوذت علـى الحكاية وأوّلتها إلى الحد الذي جعـل الحكاية الآن مملوكـة لآن ماري وليست ملكا لبياتريـس. وهكذا فإن "الصراع التأويلـي" يلقـي بالضوء على كثير مـن القضايا التـي تواجهها النسويـات، إذ يحاولن

الموازنــة بين رغبتهن في تحري الصدق والأمانة تجاه راوياتهن وبين رؤيتهن النسوية المكتسبة بما فيها من إمكانيات سياسية وبما فيها أيضا- بلا شك- من قصور.

وليس من الصعب أن نفهم كيف يكون لتشارك السلطة من أثر في تمكين الراوية، فالناس قطعا أميل إلى الشعور بالتمكين عندما يتم تضمينهم تضمينا كاملا وعندما تلعب قيمهم أدوارا متساويــة. كذلك فباعتبــار النسوية منظورا سياسيا مكتسبا، فــإن الحفاظ على ملكية المعرفة الناتجــة بحيث تخدم أهداف العمل النسوي هو قيمة لهــا أهميتها لكثيرات من الباحثات ومن يشاركهن العمل في المشروع البحثي. فلكل حــزم الخيارات المتنوعة اعتباراتها الأخلاقية، وليست أي منها مجرد صحيحة أو خاطئة، أفضل أو أسوأ، أكثر أو أقل "نسوية".

حفظ المعرفة المستضعفة: أرشفة التاريخ الشفاهي

إن أرشفــة النســخ المفرغــة لمقابــلات التاريخ الشفاهــي هي جزء مهم مــن النظرية والممارســة النسوية (feminist praxis) والتي تسعى في جوهرها إلى استعادة تجارب النساء وتضمينها في السجل التاريخي. إن الكلام الذي تدلي به المستجيبات اللاتي يحكين قصصهــن يجب أن تخضع للأرشفة وإتاحتها لأجيــال المستقبل، وهو الأمر الذي يمثل جــزءا من الممارسة الأخلاقية عامــة، كما أنه قد يرتبط لدى النسويــات بقضايا العدالة الاجتماعيــة. إن أرشفة تلك المادة وإتاحتها هي مسألة بالغة الأهمية في الممارسة النسوية لأنهــا تتيح سماع الأصوات التي خضعت تاريخيا للإسكات، كما يجب نقل تلك المعرفة وبثها وإتاحتها بحيث تصبح جزءا من السجل التاريخي، وبالتالي نضمن حفظها.

ويجــب على الباحثات التفكير في كيفية تعامل الآخرين مستقبلا مع النسخة المفرغة، وإلى أي مدى ستترك الباحثــة بصمتها على النص النهائي. إنها اعتبارات تدور حول ما إذا كان النص الذي تم تفريغه سيخضع لمراجعة في الصياغة وكيف يتم ذلك، وهو ما قد تتطرق إليه عملية التحليل والحفظ. ويجب على الباحثات التفكير فيما يلي:

- هـل ستقومين بصياغة وتحرير النص الذي تم تفريغه؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف ستقومـين بذلك؟ ما الافتراضات والأهداف التي ترشدك في اتجاه اختياراتك؟ وهل الراوية جزء من هذه العملية؟
- هـل "ستنقحـين" النص مـن الوقفات وتعبـيرات مثل "يعني" وغيرهـا مما يرد في الحديث الدارج؟ وهل ستصوبين اللغة طبقا لقواعد النحو؟
- هل ستغيرين خصائص أسلوب الكلام؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يؤثر ذلك على المعنى؟ وكيف تعكس تلك التغييرات السمات النسوية؟
- هل ستقومين بتعديل نقاط التأكيد لنقل المعنى؟ وإذا كان الأمر كذلك فنقل المعنى سيتم مـن أي منظـور: منظورك أنت، منظـور الراوية، أم تأويلك للمعنـى الذي تنقله الراوية؟ وكيف تتأثر تلك الخيارات بالقاعدة النسوية التي يرتكز عليها عملك؟
- كيـف تتأثر تلك الخيارات بالطبقة الاجتماعية والعرق والنوع والجنسانية والجنسية وغيرها من الخصائص؟
- ما تداعيات قيامك بتغييرات أو إضافة تفسيراتك الشخصية لما يرد من مفردات عامية أو دارجة قد تكون نتاجا لخلفية عرقية معينة وغيرها من الخصائص الاجتماعية؟

إن التعامل مع النصوص المفرغة هي مسألة بالغة الأهمية لإنتاج بحث نسوي أخلاقي لأن الصياغـة والتحرير يرتبطان بعملية صياغـة المعنى، وكذلك لأن النسويات يعلمن بأن تلك الاختيارات وثيقة الصلة ومتداخلة مع السلطة الاجتماعية وإنتاج المعرفة:

> من السمات المهمة للعلاقـات الاجتماعية في مقابلات التاريخ الشفاهي هي علاقـات القوى بين القائم بالمقابلة وبين الـراوي. ويدخل النوع والطبقة والعرق وغيرها من الاعتبـارات الاجتماعية بدرجة ما أو بأخرى طرفا في سيـاق المقابلـة الشخصيـة. وهي اعتبـارات تؤثر في عمليـة الصياغة

والتحريـر من خلال رؤى الراوي والقائـم بالمقابلة/المحرر وتصوراتهم عن أوجه الشبه أو الاختلاف في المكانة الاجتماعية فيما بين طرفي المقابلة، بمـا يعمل بدوره علـى تشكيل فهمهما لدوريهما في المقابلـة. وتكمن أهمية ذلـك بالنسبة للصياغـة والتحريـر في الطريقة التي تتداخـل بها علاقات القـوى مـع التجـارب المتباينة تجـاه الكلمـة المكتوبـة. إن كـون الرواة يحملون تجـارب متباينة تجاه الكلمـة المكتوبة، وعـالم الطباعة والنشر، والأرشيفـات البحثية، والمكتبات، ومـا إلى غير ذلك، هو أمر يؤثر على قرارات الصياغة والتحرير التي نتخذها، وعلى من يتخذ تلك القرارات، وأسبابها. (Wilmsen 2001، pp. 75–76)

وتعتـبر الباحثـات النسويـات قضايـا الاختـلاف وعلاقـات القـوى البحثية جزءا مـن النظريـة والممارسة الأخلاقيـة، ويقمـن باختياراتهن بما يتماشى مـع التزاماتهن الأيديولوجيـة والأطر النظرية وأهداف البحث العملية. إن المدى الذي تقوم به الباحثة بتحديد أولوياتهـا بشأن السلطة والتعاون المشـترك، أو الإمكانيات السياسية للاحتفاظ بسلطة على النص، يرتبـط ارتباطا وثيقا بالقرارات الخاصة بالتحرير وصياغة المعنى وحفظ نصوص التاريخ الشفاهي المفرغة.

الممارسة النسوية في أبحاث مقابلات مجموعات النقاش

إن مجموعـات النقاش (focus groups) تختلف عن المقابـلات الشخصية المتعمقة (in-depth interviews)، والتاريخ الشفاهي في أنها تضم عددا من المستجيبين والمستجيبات ممـن يتم مقابلتهـم معا في شكل مجموعة. وبينما تطور أسلـوب مجموعات النقاش من أبحـاث السوق لجمـع بيانات عن المستهلكين، فـإن هذا المنهج الفريـد للمقابلات يلاقي حاليا رواجا كبـيرا في العلوم الاجتماعية، والرعاية الصحية، والتعليم. ويتم استخدام

مجموعات النقاش عموما في البحث الأكاديمي في ثلاثة أنواع من المشروعات البحثية: 1) الأبحاث التقييمية. 2) الأبحاث الاستكشافية. 3) مشروعات البحث متعددة المنهج. وقبل أن أتطرق إلى شرح موجز لكيفية الاستعانة بمجموعات النقاش الواردة في النقاط السابقة، أود الإشارة إلى أن مجموعات النقاش، مثلها في ذلك مثل غيرها من مناهج المقابلات الشخصية التي تناولناها في هذا الفصل من الكتاب، يمكنها أن توفر مادة وصفية ويمكن استخدامها لتوليد النظريات.

ويتم توظيف مجموعات النقاش في الأبحاث التقييمية (evaluation research) عند الحاجة إلى فحص برنامج أو بناء مؤسسي ما. وكثيرا ما يتم تقييم البرامج التعليمية الجديدة، وبرامج التدخل المبكر (Brotherson 1994) والبرامج المجتمعية (Matoe-sian & Coldren 2002). كما أن مجموعات النقاش كثيرا ما تلائم أيضا الأبحاث الاستكشافية عند توفر القليل من المعلومات عن موضوع ما، وهو منهج يتيح للباحثات والباحثين جمع بيانات عن المواقف والأفكار والمشاعر والتجارب الشخصية من عدد من المستجيبات والمستجيبين في المرة الواحدة. وهو أمر قد يساعد في توجيه الأبحاث المستقبلية بشأن موضوع لا يتوفر حوله سوى القليل من المعلومات. كذلك فإن البيانات التي يتم جمعها في هذا النوع من الأبحاث الاستكشافية قد تقدم معلومات مهمة عن موضوعات أساسية أو أساليب لغوية غير رسمية داخل مجموعات بعينها، وهذه من الأسباب التي تجعل مجموعات النقاش ملائمة لخطط البحث متعددة المنهج. فبينما يجب أن تساير خطة البحث دوما أهداف البحث، فإنه يكثر الاستعانة بمجموعات النقاش جنبا إلى جنب المقابلات المتعمقة واستطلاعات الرأي الكمية (حيث تساعد البيانات الناتجة عن مجموعات النقاش في تطوير الأسئلة الاستطلاعية المناسبة أو في تقديم تفسير كيفي لنتائج الاستطلاعات). والآن وقد عرضت بعض التطبيقات العامة لمجموعات النقاش، سأنتقل لأتناول مجموعات النقاش النسوية مع تسليط الضوء على بعض أهم ملامح هذا الأسلوب من أساليب جمع البيانات.

- كيف يمكن للباحثات النسويات استخدام مجموعات النقاش؟
- كيف تخدم مجموعات النقاش المبادئ النسوية؟
- كيف يمكن للباحثات النسويات التفكير بشأن قضايا خطة البحث، كاختيار العينة وتحديد المعايير وتحكم القائم بدور التيسير؟

النسوية ومجموعات النقاش

عادة ما تقوم النسويات بدراسة الموضوعات والمجموعات السكانية المعرضة للتجاهل من قبل المجتمع البحثي الأوسع، وبالتالي قد يوظفن مجموعات النقاش في الأبحاث الاستكشافية. إلا أنني أعتقد أن أكثر العوامل جاذبية إلى هذا المنهج بالنسبة للنسويات تتمثل في قدرة القيام بالبحث داخل المجموعات المستبعدة والقدرة على الوصول إلى "الأصوات المستضعفة".

ويتضح لنا أن مقابلات مجموعات النقاش تساعد بشكل خاص في جمع البيانات من مجموعات سكانية "صعبة" (Kitzinger 1994، p. 112)، والمقصود بكلمة "صعبة" هو الإشارة إلى البشر الذين قد يشعرون بالاستبعاد وعدم الأمان، أو ممن قد يكونون غير متحمسين للمشاركة في دراسة بحثية، كالأشخاص المصابين بأمراض تناسلية أو ممن يتعاطون المخدرات (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 197). كذلك تكون مجموعات النقاش مفيدة في التوصل لمعرفة التوجهات والمشاعر والتجارب الشخصية لمجموعات تتعرض للتهميش أو الإسكات داخل المجتمع، وتتضمن النساء والأقليات الجنسية، والأقليات العرقية، وغيرها من المجموعات التي تهم الباحثات النسويات.

- كيف تكون مجموعات النقاش مفيدة في اكتساب المعرفة من المجموعات المستبعدة أو المهمشة؟

إن نوعيــة التفاعــل الجماعــي والروايــة متعددة الأصــوات التي تتــم في مقابلات مجموعات النقاش تجذب الباحثات النسويات المهتمات بالكشف عن المعرفة لدى الفئات المستضعفــة. وينتــج عن مقابــلات مجموعات النقاش مــا يشار إليــه بمسمى "الحدث" (happening) (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 199)، والــذي يشــير إلى الحوار الذي رغم إعداده المسبق و"تركيز النقاش" من قبل الباحثة، إلا أنه يظل عملية سرديــة ديناميكية. ففي وجود سياق محدد يقوم أعضاء المجموعة بالتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم وتجاربهم بشروطهم الخاصة.

> يضمــن العمل الجماعي منح الأولوية لترتيب الأمور تبعا لأهميتها بالنسبة للمستجيبــات وللمستجيبين من حيث لغتهــم ومفاهيمهم الخاصة، وأطرهم الفكرية الخاصة لفهم العالم. . . . إن أشكال التواصل اليومية. . . قد تكشف لنــا عن الكثير، إن لم يكــن كشفها عن قدر أكبر ممــا نعرفه عما "يعرفه" الناس. ومــن هنا فإن مجموعات النقاش "تتوصــل إلى تلك الجزئية التي لا تستطيع المناهج الأخرى الوصول إليها" - بما يكشف عن أبعاد عادة ما تظل غائبة عن الفهم عند استخدام المناهج الأكثر تقليدية كالمقابلة الشخصية الفردية أو الاستبيان. (Kitzinger 1994، pp. 108-109)

وبالنسبــة للباحثات النسويات اللاتي يعملن مع فئــات سكانية مستبعدة و/أو يحاولن الوصــول إلى المعرفة عن الواقع الاجتماعي والتي طالما سبــق إسكاتها قد يعتبر الحدث الجماعي سبيلا مثمرا لبناء المعرفة. فلنقل مثلا إننا مهتمون بتجارب الأمهات العاملات في الموازنــة اليومية بين العمــل والأسرة، فنجد في الاستطــلاع أو المقابلة المكثفة غياب بعضــ تفاصيل التجارب اليومية، بالإضافــة إلى كيفية استيعاب النساء لتلك التجارب. أمــا في الحــوارات الجماعيــة فقد يتــم التعبير عن تلــك الجوانب المهمة مــن المعرفة من خــلال الإفصاح عن التجارب ومقارنتها. فعلى سبيل المثال قد تتحدث إحدى النساء في المجموعــة عن السرعة التي يجب عليها أن توصل بها طفلها إلى الحضانة ثم التوجه إلى

عملها، وفي تلك اللحظة قد تقول امرأة أخرى شيئا من قبيل: "هذا إلى جانب الإحساس بالذنب حين يريدني أن أبقى بينما أكون مضطرة إلى الذهاب"، وهي عبارة قد تثير مزيدا من التعبير عن المشاعر والتجارب المشابهة والتي تؤدي إلى المزيد من المعلومات المتعمقة من المستجيبة الأساسية بالإضافة إلى النساء الأخريات في المجموعة. كذلك نجد أن النساء يشرحن تجارب حياتهن اليومية بالاستعانة بمفاهيمهن وأطرهن الخاصة في فهم تجاربهن، ومنها مصطلح الذنب المحمل بالمعنى الوارد في المثال السابق.

وتستخدم النسويات مجموعات النقاش بأشكال عديدة مختلفة ضمن سبل الوصول إلى المعرفة لدى المجموعات المهمشة. وفي المقطع التالي من "ما وراء الستار" تتناول كل من ليسا دودسون وليا شمالزباور وديبورا بياتيللي تجاربهن في القيام بمشروعات بحثية تقوم على مجموعات النقاش مشبعة بالنسوية (feminist-infused)، تدخل فيها المشاركات في مستويات عدة من عملية بناء المعرفة. وقد قامت الباحثات الثلاث بكتابة ذلك النص في صورة حوار أقرب إلى أسلوب النص المفرغ الناتج عن مجموعات النقاش.

ما وراء الستار مع ليسا دودسون وليا شمالزباور وديبورا بياتيللي

حوار حول مجموعات النقاش التأويلي

نقوم في هذه الصفحات بعرض موجز لحوار متواصل بشأن ممارسة منهجية نسوية تقوم على المشاركة، مع التركيز على مرحلة التأويل في البحوث الاجتماعية. وكغيرها من الأبحاث "feminist infused" القائمة على المشاركة (Lykes & Coquillon 2006) يسعى عملنا البحثي إلى تفاعل المشاركات والمشاركين تفاعلا ذاتيا يقوم على المطاوعة في أعمال بحثية تعتمد على التعاون المشترك، وتتعامل مع التجارب المعيشة

باعتبارهـا مسألة محورية في بناء المعرفـة. ونحن نتناول في مجمل عملنا البحثـي الغياب التاريخـي للنساء والملونين وغيرهم مـن المجموعات التي تعرضت للتجاهل بل وأحيانا التشويه في إطار ما نعرفه عن العالم. وبينما نقوم بتوظيف مناهج متنوعة من مناهج المشاركة، فإن من ضمن ما نركز عليه هو "أخلاقيـات تأويل" المادة المستقاة من حيوات الآخرين. وقد قمنا من وراء الستار، ومؤخرا بشكل مباشر وصريح، باستخدام منهج يطلق عليه مسمى "مجموعات النقاشـ التأويلي" (IFGs: interpretive fo- cus groups)، الساعيـة للحفـاظ على وضع المعرفـة المحلية والعالم من منظور "الذوات" في بؤرة تحليل المادة المجموعة.

إن "مجموعـات النقاش التأويلية" تضم مجموعة ممن يعيشون أو يعملون عموما في نفس الوضع الاقتصـادي الاجتماعي الذي تنتمي إليه مجموعة الأشخاص "الخاضعين للدراسة"، وذلك للمساعدة في تحليل المادة العلمية (للمزيـد انظر/ي: Dodson & Schmalzbauer 2005). ويطلب من المشـاركات في هذه اللقاءات تحليل أنواع متنوعة من البيانات والمعلومات مثـل: المفردات، والحكايات القصـيرة (vignettes) والأفكار والتسلسل الرقمـي (numeric trends) والمناقشـات المسجلة وغيرهـا من أشكال التعبـير، كما يطلب منهم القيام بالتعاون معا في تأويل "المعنى في سياقه". وهـم بالتالي يشتركون في الكشف عن المعاني الكامنة وراء القوى المباشرة التي تؤثر على الحيوات اليومية للمستجيبين والمستجيبات.

حكي قصص الحياة

ليسا دودسون: لقد بدا واضحا لي منذ فترة مبكرة من مراحل عملي البحثي أن معظم الأبحاث التي تتناول الحياة في الأجزاء الفقيرة من أمريكا كانت أبحاثـا تركز على خطوط التماسـ (fault lines) الاجتماعية. وقد كنت

حينذاك، ضمن عملي في مجال الصحة العامة، أساعد في دراسات معقدة تتناول بالبحث مشاكل الإنجاب لدى المراهقات والأوضاع الصحية للأمهات والأطفال. وبينما كان هنالك جهد نظري مهم يتم في صياغة فرضيات البحث وإعداد عينات البحث ومناهج جمع المادة العلمية، فإنني وجدت نفسي أتساءل: عمَّ يجعلنا نتخيل أن "ذوات" البحث أي الأمهات المراهقات والأمهات من أصحاب الدخول المنخفضة سوف يخبرننا بما نريد أن نعرفه؟ فمن خلال عملي في منظمات مجتمعية في أحياء منخفضة الدخل أدركت إشارة مشتركة مفادها أنه من الحماقة بشكل عام أن نتصور قدرتنا على استخلاص روايات دقيقة عن الحياة اليومية، بل وقد لا يقتصر الأمر على الحماقة بل قد يتعارض مع مصالح الفرد المادية المباشرة، بل وقد يعتبر في بعض الحالات أمرا يحمل قدرا من الخطورة. فمن المقولات المتكررة "إنني أحتفظ بشؤوني لنفسي" وهي مقولة نسمعها في الحالات التي يعايش فيها الناس تهميشا اقتصاديا وعنصريا وغيره من صور التهميش. فأكثر أسئلة البحث الموجهة للأمهات المراهقات "حيادية"، وهما سؤالان: "أين تعيشين؟" و"ما دار الرعاية أو الحضانة التي تستعينين بها عند ذهابك إلى المدرسة؟"، يحملان معهما عددا من المراقبين وصورا محتملة من العقاب. ففي الجزء الثامن (من برنامج دعم المسكن الفيدرالي) توجد قواعد بشأن المشاركة في المسكن (cohab–itation)، ومجرد كسر تلك القواعد قد يؤدي إلى فقدان هذا المسكن. وتقوم الولاية بتتبع أماكن وجود الآباء سعيا للحصول منهم على مقابل للدعم والرفاهة، وبالتالي فإن تحديد مكان أحد الآباء الشباب والذي قد يقوم بتوفير الرعاية الضرورية للطفل، دون تمكنه من توفير المال، قد يسبب له المشاكل إن لم يكن يعرضه للسجن. وهي أمور لا تكشف سوى عن القليل من الوضع الملتبس الذي يشغله الناس عندما لا يملكون الدخل الكافي لإعاشة أنفسهم، أو حين يحاولون الحصول على مزيد من الحق في

كوبونات الطعام والتأمين الصحي ليشمل عددا أكبر من الأفراد، أو حينما يوجدون في الولايات المتحدة الأمريكية بصفة "غير شرعية"، أو يكونون قد تعلموا بشكل ما إخفاء حقيقتهم الاجتماعية. وتبدو وعود الحفاظ على سرية المعلومات في أحسن حالاتها غير مضمونة على مستوى معظم هذا المجتمع.

وعلى مدار سنوات من تأمل مشكلة السعي للحصول على معلومات يكون لأصحابها أسبابهم الوجيهة في عدم الإفصاح عنها، قمت بتطبيق نموذج للبحث يقوم على مقاربة تشاركية نسوية (feminist participatory approach)، يقوم على إشراك الناس الخاضعين للدراسة في إعداد ومراجعة بل وحتى القيام بالبحث. ومع ذلك كنت على ثقة من أن اكتساب قدر أعمق من الفهم يتطلب إشراك الناس المنتمين إلى "مجتمع" البحث في تحويل البيانات والمادة العلمية إلى المعنى، أو خلال مرحلة التأويل في مسار البحث الاجتماعي. وقد بدأت منذ ما يزيد على العشر سنوات في إشراك الناس بشكل منهجي باعتبارهم خبراء في تحليل عالمهم، ولكني لم أقم سوى بالإشارة إلى الممارسة نفسها. وفي الوقت الذي بدا بوضوح أن مجموعات النقاش التأويلي (IFGs) تيسر الوصول إلى الروايات الخفية عن الحياة والمجتمع، فإن هذه المقاربة لم تنل حظها من حسن الاستقبال والتلقي في منابر البحوث التقليدية.

ومنذ عدة سنوات، عندما بدأت المناقشات بيني وبين ليا حول بحثها الذي يتناول المهاجرات والمهاجرين من هندوراس في مدينة بوسطن (وهو المسار الذي مضى في نفس الاتجاه بعد ذلك بعامين مع ديبورا) أرادت ليا معرفة المزيد عن مجموعات النقاش التأويلية وما يتصل بها من منهجيات تتناول "عادات إخفاء" المعلومات عن الحياة اليومية.

توضيحات: الإنصات طلبا للحقيقة المتأصلة مع المهاجرين من هندوراس

ليا شمالزباور: لقد قمت في رسالتي الجامعية بمشروع يتناول استراتيجيات البقـاء لدى العائلات عبر القومية المهاجرة من هندوراس، وهم العائلات المقسمة بين الولايات المتحدة الأمريكيـة وهندوراس. وقد جاءت الغالبية من أعضاء العائـلات التي تناولتها في البحث من المهاجرين الفقراء وغير الموثقـين ممن يعيشون في الولايات المتحـدة الأمريكية، وبالتالي يعيشون فيمـا أسماه -بحـق- الباحث الأنثروبولوجي ليـو شافيز(Leo Chavez) (1998 حيـاة "الظـلال" (the shadows). واستلهاما بقدر كبير لجهود ليسا البحثيـة كنت قد عزمت منذ البداية على القيـام بأبحاث تتسم بتأصلها في المجتمعـات الصغـيرة وتعتمد على المطاوعة والتعـاون المشترك - أي أبحاث نسوية تشاركيـة (feminist participatory research). وقد نلت في هـذا المشروع الدعم والمشورة من ليسـا وديبورا، حيث كثيرا ما تناقشنـا حول كيفيـة نقل الخطاب النسوي من الكتـب الدراسية إلى ميدان البحـث، وما يمثله ذلك من كفاح فريد من نوعه حينما يكون ميدان العمل مكانا بالغ التهميش.

ومنذ ولادة الفكرة الأولى للبحث واجهتني تحديات عملية وعاطفية تتصل بمكانتـي باعتبـاري شخصية تتمتـع بامتيازات وآتية من خـارج المجتمع الهندوراسـي. فأنا أكاديمية بيضاء من الطبقة الوسطى. وأنا أتحدث اللغة الإسبانيـة وعملت لعدة سنوات في حركة تضامن أمريكا الوسطى، ولكن رغـم التزامي الشخصي تجـاه ذلك المجتمع ، فإنه لم يكـن ولن يكون في وسعي أبدا الادعاء بأني على درايـة تامة بـ"الحقيقة المتأصلة" (ground truth) (Dodson 1998) التـي يعايشها أهل أمريكا الوسطى في حياتهم اليومية. وكنت علـى علم بأن قضاء عدة سنوات في البحث الميداني ليست

كفيلة بتغيير ذلك الأمر مهما تكن درجة صرامة مناهجي البحثية. وبالتالي قضيت ساعـات طوال في تأمـل المسائل الخاصة بالتمثيـل والمشاركة مع محاولة صياغة منهجية يمكنهـا أن تساهم في نضالات المهاجرين من أجل العدالـة الاجتماعية دون أن أتسبـب في أي أذى بسبب سوء التمثيل. كما كنـت علـى يقين أيضا من رغبتـي في القيام بعمل بحثي يقـوم على العمل المشترك مـع المجتمع بحيث يتعـاون المجتمع معي ثـم يوجهني ويرشدني في تحليـل المـادة العلميـة وتأويلها، فلم أكـن أرغـب في أن أكون مجرد متحدثة بلسان هذا المجتمع. فقررت الاستعانة بمنهج الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات الشخصية المعمقة، ومجموعات النقاش التأويلي.

وبعد قضاء عام من الملاحظة بالمشاركة في منظمة قاعدية لحقوق المهاجرين بـدأت في عقـد مقابلات معمقة مـع أفراد من المجتمع. وقـد جاء ذلك بعد فـترة قصيرة من أحداث 11 سبتمبر، بمـا شهدتها تلك الفترة من خضوع مجتمعـات المهاجرين بطول البلاد وعرضهـا لثقافة الخوف: الخوف من الترحيل، والخوف مـن التمييز، والخوف من العنف. وعلى الرغم من شعـوري بثقة المجتمع بي فإنني كنت أستشعر أحيانا وجود خوف كامن في عقول وقلوب المستجيبات والمستجيبين.

وكان هـذا الخـوف الكامن يتكشف لي حـين كنت أطلب مـن المستجيبات والمستجيبـين الحديـث عـن تصورهـم للفرص المستقبلية المتاحـة لهم في الولايات المتحـدة، فقد كانوا يحكون في مقابلة تلـو الأخرى حكايات عن التمييـز في مـكان العمل، وعـن الحنـين إلى الوطن، وعـن العنصرية والمعاملـة المجحفة والمؤذيـة التي يلقونها من أصحـاب العمل. ولكن حين سألتهم عما إذا كانوا يشعرون بوجود حواجز وموانع للحراك الاجتماعي والاقتصـادي في الولايات المتحدة، لم يجب على ذلـك السؤال بالإيجاب

إلا عـدد قليل جدا منهم. وقد أربكني ذلك فطرحـت الموضوع للنقاش في مجموعة نقاش تأويلية تضم مهاجرات ومهاجرين من هندوراس، وعدد من أصحاب الخدمات، ومن العاملين في المجتمع.

وقد أدت مجموعة النقاش التأويلي بي إلى تعديل تحليل المادة، فقد علمت من أبناء المجتمع الهندوراسي كيفية قراءة وتفسير شفرات الأدب والأمان التي يتسم بها موضوع "الفرصة المستقبلية" لكثير من المهاجرين والمهاجرات، وخاصـة غير الموثقين منهم (the undocumented). كما اكتسبت فهما أعمق لما تحمله مكانتي من حيث اللون والعرق والطبقة والجنسية من تأثير كامـن في تواصلي مع المستجيبـين والمستجيبات. وأخـيرا، وربما الأمر الأكثر أهمية هو أنني شعـرت خلال ذلك المسار البحثي بتحول في ميزان القوى حين قام أبناء المجتمـع أنفسهم بدور الخبراء المحللين بينما تراجعت أنا إلى دور الطالبة أو الدارسة. وهو تحول في القوى أتاح قدرا أكبر من الوضوح والدقة في تحليل المادة كما قام بتغيير علاقتي مع المجتمع.

وأنـا أعلم من واقع حواراتي مع ليسا وديبـورا أنهما قد اكتسبتا معلومات وأفـكارا من خلال ما عقدتاه من مجموعات نقاش تأويلي، بينما ما زالت أنا أستلهم تجاربهما.

التعديل: الكشف عـن "عادات الإخفاء" لدى المجموعات السكانية المتميزة بشأن الخطاب العنصري

ديبورا بياتيللـي: لقد شرعت ضمن إعدادي لرسالـة الدكتوراه في توثيق التحديـات التي تواجهها شبكة السلام والعدالـة لأبناء الطبقة الوسطى من البيضـ وذلك من خـلال سعي تلـك الشبكة إلى تحويل نفسهـا إلى حركة

متعـددة الثقافات. وكنت قد استشعرت منـذ فترة مبكرة من عملي البحثي أن هنالك أبعادا أعمق فيما يتصل بكيفية تناول الناس مسألة التنظيم مقارنة بما كنـت قد لاحظته أو سمعت عنه. وقد كنـت في حاجة لاكتشاف طرق تتسـم بقدر أكبر من الإبداع عن الأشكال التقليدية للمشاركة في النصوص المفرغة للمقابلات الشخصية والتأويلات التي يتم التوصل إليها بالاشتراك مع المشاركات والمشاركين في البحث نحو تأويل المادة العلمية. ومن خلال القراءة والحوارات مع ليسا وليا بشأن أبحاثهما، جذبتني الإمكانيات التي تتيحهـا مجموعات النقاش التأويلي في تحفيز وتضمين الخبرة المجتمعية في عملية التأويـل. وقد استخدمت مجموعات النقاشـ التأويلي في المرحلتين المبكرة واللاحقة من مسار البحث، ووجدت في هذا المنهج فائدة في الكشف عن الخطابات الخفية لدى الفئات المميزة داخل تلك الشبكة. كما كشفت لي مجموعات النقاش التأويلي أيضـا عن خطوط جديدة في البحث بالإضافة إلى ما وفرته من سبيل لإشراك أفراد المجتمع في البحث.

وقد جمعت الحوارات حول اللون والطبقة بين سمات التحدي والصعوبة. فعنـد التحاور مع الناس حول تجاربهم في التعامل عبر أوجه الاختلاف، استكشفنـا الصعوبات القائمة في العمـل ضمن بناء اجتماعي محمل بعنصر اللـون، وكان مما أثار دهشتي هو الصراحة التـي اتسمت بها الحوارات مع الملونـات والملونين بشأن قضايا اللون. وقد جـاءت حواراتنا مباشرة وصريحـة ومريحـة، إذ تحدثـوا عـن أهمية فهـم "القضايـا الحقيقية"، والإحساس بقيمة "العمل المجتمعي باعتباره عملا سياسيا"، ومعرفة معنى "أن تضع نفسك مكاني". وقد ذكر شخص تحديدا، وهو كين، أنه كثيرا ما كان يشعر بالتعرض للإسـكات عندما يكون وسط أشخاص من البيض، فقال: "الناس البيض لا يريدون الدخول في حوارات لأنهم لا يرغبون في

التعامل مع العنصرية والطبقيـة، والعنصرية بالذات. . . فالناس البيض ببساطـة لا يريدون الدخول في تلك المساحة. . . بل ولا أعتقد أنهم يرونها أصلا." وقد كانت تجربة الحوار مع البيض مختلفة للغاية وصعبة للغاية، فقد جاء الحوار مع الكثيريـن متوترا وغير مريح ومبهما ومتناقضا. وقد واجهـت لحظات صمت غريبة ومحاولات لتحويل دفة الحوار إلى وجهة أخـرى – أي سـاد إحساس عام مـن التوتر. وقد تذكـرت كلا من ليسا وليا وهما تحكيـان عن تجارب شبيهة بذلك عنـد تطرقهما مع المشاركات والمشاركـين في البحث إلى موضوعات تثير مخاوف الكشف عن المخفي. فعند التطرق إلى موضوعات عن العنصرية، كثيرا ما كان الناس البيض ينخرطـون في خطاب يتسم بعمـى الألوان، فكانوا يؤكـدون على أهمية بنـاء حـركات متعددة الثقافات ولكـن عندما كنت أسألهـم عن سبب عدم وجـود أي ملونين ضمن مجموعتهم كانـوا يقولون: "إنهم غير منظمين، ويفتقدون إلى التسييس"، وإنه "أمر بالغ الصعوبة ويتطلب قدرا بالغا من الوقت كي نبني تلك العلاقـات". ولكن الأمر كان مختلفا عند التعامل مع غيرهـم من البيض، فكانوا يعترفون بما يتمتعون به من امتيازات وكانوا يؤكـدون على أهمية العمل مـع الملونين ومع الفئـات منخفضة الدخل في تنـاول "الأمور اليومية التـي تعرضهم للقهر" بدلا مـن "مطالبة الملونين بالانضمـام إليهم." وقـد قالت امرأة اسمها بولـين "إذا كنا نحارب الظلم هنـا في هـذا البلد [جنبا إلى جنـب العراق]، فلابد لنا مـن أن نتوقف أمام كيفيـة مساهمتنا، نحن البيض، في ذلـك الظلم. والكثيرون من البيض لا يريدون القيام بتأمل ذلك."

وقد تساءلت عن سبب ذلك التباين البالغ فيما بين بعض البيض في الآراء، وإذا كان الناس ملتزمين بالعمل عبر الاختلافـات؛ فلماذا لم يتحقق ذلك

على أرض الواقع وخاصة في مجتمعات تتسم بالتعددية والتنوع؟ حملت تلك الألغاز إلى مجال مجموعات النقاش التأويلي حيث قمنا بمناقشة الأفكار التي تبلورت من خلال تلك الحوارات. وقد أدت مجموعات النقاش التأويلي تلك، والمكونة من ثلاثة إلى أربعة أشخاص من البيض، إلى الكشف عن أن مفاهيم الناس بشأن السلام والتنظيم هي نتاج لا للتجارب السياسية المختلفة فحسب وإنما للتجارب المعيشة والبنى المختلفة في المجتمع المحمل بعناصر اللون والطبقة والنوع. وقد كان الجو العام خلال تلك الجلسات مريحا بقدر أكبر مما كان عليه في المقابلات الشخصية، وقد أدى ذلك في بعض الحالات إلى تأملهم وطرحهم الأسئلة بشأن ما يتمتعون به من امتيازات وما يحملونه من قناعات. وقد كان الناس أكثر انفتاحا في الحديث عن مسألة اللون والامتيازات عند تأويل أصوات غيرهم من البيض مقارنة بتأويل أصواتهم هم أنفسهم، وذلك لوجود مسافة تبعدهم عن تلك الامتيازات بما يتيح حيزا آمنا.

متطلبات ومآزق مجموعة النقاش التأويلي: هل الأمر يستحق ما يتطلبه من جهد؟

ليسا دودسون: لقد واجهت على مدار السنين قدرا من النقد لتلك الاستراتيجية التأويلية، وهو نقد يقع عادة في واحد مما يلي. إن مقاربة مجموعات النقاش التأويلي هي مقاربة بنائية (constructuvist) (Charmaz 2000) وتقوم في جوهرها على المشاركة، وبالتالي لا يمكن تكرارها بنفس الشكل تماما. كما يستدعي هذا المنهج العمل المشترك بين الباحثين والباحثات من ناحية والمستجيبات والمستجيبين من ناحية أخرى، بالإضافة إلى أفراد من المجتمع الذي ينتمي إليه المستجيبون. وكما تكشف لنا كل من ليا وديبورا، فإن هذه المقاربة التأويلية تحتمل التوضيح

والتعديل، حتى ولو تطلب ذلك قدرا من الجهد، وخاصة عند الانتهاء من كل مراحل جمع البيانات والمادة العلمية الأخرى. ويشعر بعض الباحثين والباحثات بعدم الراحة تجاه "التلقائية المنهجية" نظرا لصعوبة تكرارها في خطوات منظمة ودقيقة.

أما وجه النقد الآخر الذي واجهته فيتمثل في أن مجموعات النقاش التأويلي تعمل على إحداث تحول في عملية الاكتشاف -أي تأويل المعنى بغرض ادعاء المعرفة - وهو تحول الباحثة أو الباحث إلى شخصين ليسا من المتخصصين في البحث، وهو ما أشارت إليه ليا عند حديثها عن وجود لحظة شهدت "تحول السلطة" في قاعة النقاش. وقد لاحظت - أنا - أنه بينما تلقى مناهج التشاركية النسوية بالقبول نظريا (على الأقل في أوساط كثير من الباحثات والباحثين الاجتماعيين) فإن مفهوم فتح مجال لحظات الوعي الفكري في المسار البحثي تعتبر أقرب إلى الممارسة غير المشروعة، فالمجال الأكاديمي يضفي قيمة كبيرة على "أصحاب الفكر الجديد"، فأولئك الذين يسارعون في استعراض المساحة الفكرية التي يشغلونها هم الأكثر نجاحا أكاديميا. فيتم تدريب طلاب الدراسات العليا على العثور على الأفكار الجديدة وامتلاكها بشكل صريح دون مشاركة مع الآخرين، بل مع التأكيد على الفردية الفكرية، إن لم يكن التفوق الفردي. كذلك فإن الباحثات والباحثين الاجتماعيين، سواء كانوا يعملون في الجامعات أم لا، يعلمون أن حصولهم على الدعم المستمر لجهودهم يرتبط ارتباطا وثيقا بهويتهم باعتبارهم خبراء متخصصين. فهي مجتمعات نخبوية تقوم -منذ زمن- على تعليم الحرص والتمسك بالملكية الفكرية وهوية الخبرة والتخصص، بينما نجد أن مقاربة مجموعة النقاش التأويلي تتعارض مع ذلك. فإننا وجدنا أن ما يفتح المجال أمام أفراد المجتمع في حمل المعرفة

ومشاركتنـا في صياغة المعنى يتمثل تحديـدا في طلب الحكمة من الآخرين مـع الاعتراف بمـا لدينا من قصور والكشف عنه. كمـا تشير تجربتنا إلى أنه- مع ما تعكسه مجموعات النقاش التأويلي من مبادئ نظرية التشاركية النسويـة، - يقوم هذا المنهـج على مواجهـة السلطات التقليديـة في تأويل الظواهـر الاجتماعية ويمكنه أن يساهم في إحداث تحول فيما يتصل بكيفية "معرفة" مجتمع ما.

ليا شمالزباور: ومع استمرار بحثي داخل مجتمع هندوراس عبر القوميات اتضحت لي أهمية توظيف المناهـج التشاركية (participatory meth-ods)، عامة ومجموعات النقاش التأويلي خاصة. إن النقطة المنهجية التي تشير إليها ليسا تحديدا حين أثارت مسألة النقد الموجه إلى مجموعات النقاش التأويلي، أي "فتح مجال لحظات الوعي الفكري في المسار البحثي"، هي النقطـة التـي أرى أنها تجعل بحثي حيويًا ومهمـا - أي إن عملي المشترك وتوجيه "الآخريـن" ممن لا يملكون مؤهلات البحـث التقليدي هو الذي شكّل ما أقوم به من تحليل وتنظير تشكيلا بالغ الأهمية.

ويرى بعضـ الأكاديميين أن مجموعات النقاشـ التأويلي (IFGs: In-terpretive Focus Groups)، لا تختلـف عـن مجموعـات النقاشـ التقليديـة (traditional focus groups)، ولكننـي أؤكد أنهما منهجان حقـا مختلفان، فهما مختلفـان اختلافا مهمـا من حيث نقـل السلطة بجعل العمـل المشترك عنصرا أساسيـا في مسار البحث منـذ بدايته، ومن حيث دمج أفراد المجتمع في هـذا المسار باعتبارهم "خبراء" في مرحلة التأويل. وبالتالي أعتبر مجموعات النقاش التأويلي أداة مفيدة إن لم تكن ضرورية لتعزيز صحـة التحليل ودقته عندما يضرب البحث بجذوره في المجتمعات المهمشة.

وسأظـل طوال حياتـي أكافح في تعاملي مع المـآزق المتصلة بالبحث الكيفي داخـل المجتمعات التي لا أستطيع الادعاء بانتمائي إليها، ولكني لا أرى هذا الكفاح سلبيا، إذ إن مد جذور عملي بحيث يكون متجذرا ومتأصلا في إطار نسوي تشاركي يضمن لي الإدراك الدائم لأوجه الضعف والعرضة للأذى والمجازفة الكامنة في عملي البحث، بما يفرض عليّ دوام المطاوعة ومتابعة علاقـات القوى والسلطـة. إن تناولي للمناهج التشاركيـة، وتحديدا منهج مجموعات النقاش التأويلي، سهل لي أيضا الالتزام بعمل مشترك متواصل مـع مجتمع المستجيبـات والمستجيبين. وإذا كنت قد انتهيـت من أطروحتي الجامعية فـإن العملية التي منحـت بحثي الدفعـة الأولى مستمرة، وعلاقة الشراكـة مع المجتمع الذي درسته هي علاقة تزداد قوة. وأنا أرى أنني لن أستطيع المشاركة في خلق معرفة جديدة في المستقبل دون تلك القاعدة القائمة على القوة والثقة – نحو معرفة نبعت من الهوامش لا من المركز.

ديبـورا بياتيللي: لقد وجـدت في أبحاثي أن الرغبـة في إقامة علاقة بحثية تشاركية ليست كافية لجعل الأمر حقيقة واقعة. فالمأزق الذي واجهته تمثل في تجاوز جو عام من انعدام الثقة وعدم الراحة تجاه الأغراب، بالإضافة إلى القناعـة بأن البحث الأكاديمي لا علاقة لـه باحتياجات النشطاء، وهو المأزق الذي واجهته عند دخولي الميدان. فقد كافحت على مدى شهور قبل اكتسابـي الاحترام والثقة اللازمين؛ لإثبـات التزامي بإنتاج بحث مفيد يتم معهـم ولهم، لا مجرد كونه عنهم. وقد نجحت مجموعات النقاش التأويلي في إشـراك الكثيرين في البحث وتسليـط الضوء على طرق مهمة يمكن بها دمـج نتائج البحث في عملهم. وقد فتحت مجموعات النقاش التأويلي الباب أمـام بناء علاقات تشاركيـة، وتعزيز المزيد من الثقـة والقبول لوجودي داخـل الشبكـة. إن محاولة الحديث إلى مجتمع غـير راغب في الاشتراك

وإقناعه بالمشاركة في مشروع تشاركي، أو التوجه إلى الناس بطلب تأويل المادة هي محاولة كانت تبدو غير ملائمة، وبالتالي فمن خلال استثمار ساعات في أعمال تهمهم وفي التعامل مع أفراد المجتمع باعتبارهم هم حاملي المعرفة القيمة، أخذ هذا المشروع البحثي في التشكل ليصبح مشروعا تشاركيا. وقد وفرت مجموعات النقاش التأويلي سبيلا أمام الناس للتوقف أمام ما مروا به من مسارات وما يحملونه من قناعات، ولكي يقرروا بمحض إرادتهم مدى فائدة هذا البحث بالنسبة لهم وشكل تلك الفائدة.

وكما هو الحال بالنسبة لكل من ليا وليسا، فأنا أرى أيضا أن مجموعات النقاش التأويلي تثبت التجارب المعيشة وتعترف بأن المشاركين في عملنا البحثي هم من حاملي المعرفة. وعلى الرغم من أن مجموعات النقاش التأويلي تستنفد الكثير من الوقت، وكثيرا ما تقودنا إلى مساحات غير معلومة، فإنه منهج يوفر لنا قدرا أكبر من العمق والفهم لما نقوم به من جهد، كما يعزز وجود أساليب أقل تراتبية وطرق تشاركية لبناء المعرفة.

ولننتقل إلى مثال آخر لتوضيح كيف يمكن للنسويات توظيف مجموعات النقاش كوسيلة للوصول إلى المعرفة المستضعفة.

إن الحدث المحيط بمجموعة النقاش قد يكون أداة مفيدة للغاية في فهم تجربة القهر – وهي التجربة اليومية التي قد تبدو ثانوية بالنسبة للأفراد؛ وبالتالي قد تغيب جزئيا عن الأنظار أو الدراسة. فعلى سبيل المثال قد تظل التجربة اليومية المتعلقة بالعنصرية أو رهاب المثلية أو التحرش الجنسي تجارب غير مرئية بدرجة كبيرة بالنسبة لمن يتمتعون بامتيازات ثقافية في المجتمع، وبالتالي قد تتعرض التجارب اليومية والأفكار والمشاعر للكبت أو سرعة النسيان من قبل أبناء الأقليات ممن تعتبر تلك التجارب جزءا عاديا

متكـررا في حياتهم اليومية. وقد يؤدي ذلك "الغياب المـزدوج" إلى صعوبة الوصول إلى تلك المعرفة المهمة، إلا أن ذلك الحدث الجماعي قد يسمح للباحث أو الباحثة بالكشف عن شيء من تلك المعرفة المخفية. فحين تعبر عضوة من أعضاء المجموعة عن الصعوبة التـي تلقاها في العثور على كتاب لطفلها أو طفلتها يمثـل "أسرتهم البديلة" (مثل الأسرة المكونـة من أحد الوالدين فقط أو من والدين مثليـين)، فقد يشجع ذلك أفرادا آخرين في المجموعة ممن تعاملوا مع مسائل عديدة شبيهة بذلك على التعبير عنها إذ لم يتح لهم مسبقا مجال للربـط بين تلك المسائل أو ربما يكونون ببساطة سينسـون التطرق إليها. وهكذا فـإن ديناميكيـات تفاعل المجموعة قد تنتج مادة غنية للغايـة، ولكن يمكن للتفاعل داخل المجموعـة أن يتسـم بالتعقيد، كما تلعـب اختيارات الباحث أو الباحثـة في إعداد البحث دورا مهما في مدى تحقيق المقابلة لأهداف الباحث أو الباحثة:

- كيف تتطور ديناميكية المجموعة؟
- ما اختيارات إعداد البحث التي تواجه الباحثات النسويات؟

لقـد شاع إطلاق مصطلح "الأثر الجماعي" علـى ديناميكيات المجموعة التي تتطور داخـل مجموعات النقاش(Carey 1994; Morgan 1996; Morgan & Krueger 1993). ويمكن للأثر الجماعي أن يأتي بنتائج إيجابية وسلبية، وبطرق أساسية بالنسبة للممارسـة النسوية تحديدا. فمن الجانب الإيجابي يمكن لديناميكيات المجموعة أن تؤدي إلى فتـح الحـوار حول موضوع صعب وإثـارة نقاش مهم وتحقيق الفهـم، بل وإثارة نقاش جدلي بين عدد من المشاركين والمشاركات، سواء من المتشابهين أو المتنوعين فيما بينهـم. فعلى سبيل المثـال وجدت فرانسيس مونتيـل (Frances Montell 1999) في ديناميكيات المجموعة أهمية محورية في نجاح دراستها حول النوع والجنسانية والوسائط الإعلامية. فقد أوجد الجو الجماعي مستوى من الراحة فيما يتصل بموضوعات شخصية بالغـة الخصوصية وذلك لعدم شعور أي من المشاركات بـأن كل الانتباه موجه نحوها فقـط. كذلك فإن التفاعل الجماعي أتاح المجـال لمواجهة بعض القناعات والافتراضات وبالتالي عدم اعتبارها طبيعية، وهو جانب مهم من جوانب البحث النسوي.

يمكـن للمشاركات والمشاركين مساعدة بعضهم البعض في التوصل إلى ما تعنيـه الأسئلة بالنسبة لهم، ويمكن للباحثة أو الباحث التوقف أمام كيف قد يسمع مشاركون مختلفون أسئلة قد تتسم بالغموض أو الالتباس. وهو أمر مهم عند دراسة الجنس والنوع نظرا لأن هذين الأمرين يتم التعامل معهما باعتبارهما مسألتين "طبيعيتين" إلى درجة وجود صعوبة بالغة في التعرف على ما يحمله المرء من مفاهيم مسبقة، وهو الأمر الذي يفوق في صعوبته مواجهة ما لدى الآخريـن من افتراضات مفروغ منها. إن توسيع نطاق الأدوار المتاحة للنساء في المقابلة الجماعية، بحيث يتجاوز الفصل الصارم بين "الطرف القائم بالمقابلـة" و"الطرف الخاضع للمقابلة"، يفسح المجال للتعامـل والتفاعل بما يؤدي في الغالـب إلى الكشف عن تلك الافتراضات المفروغ منها بل ومواجهتها. (Mortell 1999، p. 49)

وبينمـا يمكن لـ"الأثر الجماعي" أن يساعد في تيسير بناء المعرفة النسوية، فإنه أيضا قد يعرقله بجعل الهموم النسوية مرئية. وقد يقوم بعض أعضاء المجموعة أحيانا بإسكات آخرين من أعضاء المجموعة من خلال السيطرة على مسار الحوار أو جعله من الصعب علـى الآخرين التعبير عن آرائهم بيسـر. وفي مجموعات النقاش التي يتمتع فيها بعض الأعضاء بموقعية الأغلبية بينما للبعض الآخر موقعية الأقلية، قد يحدث تكرار لعلاقات السيـادة الاجتماعيـة (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 214)، وهـو ما يحدث بسبـب ما يتـم عادة من "إسـكات" (muted) أصوات الأقلية ضمـن الأغلبية (Kitz-inger 1994، p. 110). فعلى سبيل المثال ففي مجموعة نقاش تضم كلا من الرجال والنساء قد نجد ميل الرجال إلى السيطرة، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى إنتاج معرفة من موقع الفئة المتمتعة بالامتيازات، وهو مـا لا يتماشى مع النسوية. فالباحثات النسويات يتوقفن طويلا أمام تلك المسائل في مرحلة وضع خطط أبحاثهن، حيث تتوقف النسويات تحديدا لتأمل مسألة اختيار العينة، وتوحيد المعايير، وأدوار الباحثة باعتبارها ميسّرة.

مقاربات نسوية لإعداد خطة البحث

يشير مفهوم اختيار عينة البحث (sampling) إلى من هم أعضاء مجموعة النقاش الخاصة بالبحث. فمن المهم اختيار الأشخاص من المهتمين بالموضوع، وتميل النسويات إلى اختيار أفراد من المجموعات المهمشة أو المستبعدة (marginalized or disenfranchised)، التي قد تكون معتادة على معايشة الظلم الاجتماعي. وفيما بعد اختيار العينة يتعين على المرء توحيد المعايير عبر المجموعات، وهو قرار دقيق بالنسبة للباحثات النسويات. ويشير توحيد المعايير (standardization) إلى ما إذا كان أفراد المجموعة سيتسمون بالتشابه أم عدم التشابه فيما بينهم؟ فالمجموعات التي يتشابه أعضاؤها من حيث سمات معينة (مثل النوع أو الجنسانية أو اللون أو الطبقة الاجتماعية) هي مجموعات يطلق عليها كونها متجانسة (homogeneous)، أما المجموعات التي لا يتشابه أعضاؤها فيما بينهم فيطلق عليها كونها متباينة (hetero-geneous)، وهي مجموعات تقدم مادة علمية حول كيفية استجابة نطاق متباين من الناس لموضوع معين. وبينما يوجد هنالك بالتأكيد مساحة لهذا النوع من خطط البحث، فإن الباحثات النسويات هن الأقرب إلى اختيار المجموعات المتجانسة حيث تخلق أوجه الشبه بين أفراد المجموعة حالة من الراحة، وحيث يميل أعضاء المجموعة إلى الإفصاح عن سمات الانتماء للأقلية، وحيث تنال أصوات الأقلية الامتياز لا الإسكات. باختصار فإن التجانس يخدم ديناميكيات المجموعة بطريقة محورية ضرورية للبحث النسوي.

والتقسيم إلى شرائح هو استراتيجية شائعة تستخدمها النسويات لتحقيق أقصى فوائد التجانس في الوقت الذي يتم فيه دمج بعد مقارن في المشروع البحث. والتقسيم إلى شرائح (segmentation) يعني وجود عدد من مجموعات النقاش في الدراسة الواحدة، بحيث تتكون كل مجموعة نقاش من أعضاء متشابهين فيما بينهم، مع وجود اختلاف عبر المجموعات. فعلى سبيل المثال، في دراسة تتمركز حول قضايا النوع، وهو ما يتمثل في غالبية الأبحاث النسوية، قد نجد مجموعتي نقاش مكونتين من نساء ومجموعتين أخريين مكونتين من رجال، وذلك ضمن إجمالي أربع مجموعات

متجانسة تم تقسيمها إلى شرائح بناء على النوع. وهي آلية مهمة بالنسبة للباحثات النسويات لأنها تتيح لنا مقارنة المجموعات ذات الموقع المختلف داخل الثقافة الواحدة من حيث كيفية تفكيرها ومعايشتها لنطاق واسع من الموضوعات، بينما تقلل الخلل في موازين القوى إلى أدنى حد.

وأخيرا فإن الباحثات والباحثين يتبنون دورا معينا خلال مقابلات مجموعات النقاش، وهو دور "الميسرة أو الميسر". ويرتبط أسلوب التيسير بسؤال البحث، كما يتصل أيضا بالإطار النظري والموقع الإبستمولوجي للباحثة أو الباحث. وبالتالي تلعب النسوية دورا مهما في معدل التيسير المفروض في البحث. ويشير التيسير (moderation-) إلى درجة التحكم التي يمارسها الطرف القائم بالمقابلة، وهو تحكم يتخذ عدة صور بما في ذلك توجيه دفة الحوار، وإتاحة مجال الحديث أمام الناس كما يريدون أو ضمان قيام كل شخص بالرد على سؤال معين، وتوحيد المعايير (من حيث مدى التزام كل مجموعة بنفس دليل المقابلة). إن الباحثات النسويات المهتمات بالتوصل إلى المعرفة المستضعفة الدفينة قد يملن إلى ممارسة معدل منخفض من التيسير حيث يتمتع المشاركون والمشاركات بتحكم أكبر في تركيز الحوار على موضوعات تهمهم وبلغتهم الخاصة وتبعا لإيقاعهم. إلا أن الباحثة النسوية القائمة ببحث تقييمي، بشأن برنامج جديد في التربية الجنسية أو برنامج للتدخل في العنف المنزلي، قد تختار درجة أعلى من التحكم وتوحيد المعايير لتحقيق درجة أكثر فاعلية في التعبئة لوضع البرامج التعليمية أو تغيير السياسات. ويمكننا أن نرى هنا كيف تلعب أسئلة البحث المعينة والإبستمولوجيا النسوية (مثل الموقعية أو الإمبيريقية) دورا في إعداد خطط مجموعات النقاش.

وختاما، فإن مجموعات النقاش هي واحدة من ثلاثة أشكال أساسية من أشكال المقابلات التي تستخدمها النسويات. وفي هذا الشكل المحدد من أشكال المقابلات يقوم عدد من المشاركين والمشاركات بإنتاج سردية متعددة الأصوات تفوق مجمل أجزائها. ومثلما تتنوع الإبستمولوجيات النسوية كذلك تتنوع أساليب توظيف النسويات لمجموعات النقاش عند دراسة نطاق متسع من القضايا الاجتماعية.

المراجع

Anderson, K., & Jack, D. C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.

Arat, Z. Kabasakal. (2003). Where to look for the truth: Memory and interpretation in assessing the impact of Turkish women's education. *Women's Studies International Forum, 6*(1), 57–68.

Borland, K. (1991). That's not what I said: Interpretive conflict in oral narrative research. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 63–75). New York: Routledge.

Brotherson, M. (1994). Interactive focus group interviewing: A qualitative research method in early intervention. *Topics in Early Childhood Special Education, 14*(1), 101–118.

Carey, M. (1994). Forms of interviewing. *Qualitative Health Research, 5*(4), 413–416.

Charmaz, K. (2000). Grounded theory: Objectivist and constructivist methods. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative methods* (pp. 509–535). Thousand Oaks, CA: Sage.

Chavez, Leo. (1998). *Shadowed lives: Undocumented immigrants in American society.* New York: Harcourt Brace.

Clark, Eileen. (1999). Getting at the truth in oral history. *Social Research and Social Change, 6,* 1–18.

Collins, Patricia Hill. (1990). *Black feminist thought: Knowledge, consciousness, and the politics of empowerment.* Boston: Unwin Hyman.

Dodson, Lisa. (1998). *Don't call us out of name: The untold lives of women and girls in poor America.* Boston: Beacon Press.

Dodson, Lisa, & Schmalzbauer, Leah. (2005). Poor mothers and habits of hiding: Participatory methods in poverty research. *Journal of Marriage and Family, 67,* 949–959.

Etter-Lewis, G. (1991). Black women's life stories: Reclaiming self in narrative texts. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 43–58). New York: Routledge.

Hesse-Biber, S. N. & Leavy, P. (2006). *The practice of qualitative research.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Heward, C. (1994). Academic snakes and merit ladders: Reconceptualising the glass ceiling. *Gender & Education, 6*(3), 249–262.

Kitzinger, J. (1994). The methodology of focus groups: The importance of interaction between research participants. *Sociology of Health & Illness, 16*(1), 103–121.

Lykes, M. Brinton, & Coquillon, Erzulie. (2006). Participatory and action research and feminisms: Towards transformative praxis. In Sharlene Nagy Hesse-Biber (Ed.), *Handbook of feminist research: Theory and praxis.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Matoesian, G., & Coldren, J. (2002). Language and bodily conduct in focus group evaluations of legal policy. *Discourse & Society, 13*(4), 469–493.

Minister, K. (1991). A feminist frame for the oral history interview. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 27–41). New York: Routledge.

Montell, F. (1999). Focus group interviews: A new feminist method. *NWSA Journal, 11*(1), 44–70.

Morgan, D. (1996). Focus groups. *Annual Review of Sociology, 22,* 129–152.

Morgan, D., & Krueger, R. (1993). When to use focus groups and why. In D. Morgan (Ed.), *Successful focus groups: Advancing the state of the art* (pp. 3–19). Newbury Park, CA: Sage.

Saidel, Rochelle G. (2004). *The Jewish women of Ravensbrück concentration camp.* Madison: University of Wisconsin Press.

Sangster, Joan. (1994). Telling our stories: Feminist debates and the use of oral history. *Women's History Review, 3,* 5–28.

Scanlon, Jennifer. (1993). Challenging the imbalances of power in feminist oral history: Developing a take-and-give methodology. *Women's Studies International Forum, 16*(6), 639–645.

Schneider, W. (2002). . . . *So they understand: Cultural issues in oral history.* Logan: Utah State University Press.

Slater, R. (2000). Using life histories to explore change: Women's urban struggles in Cape Town, South Africa. *Gender and Development, 8*(2), 38–46.

Sparkes, A. (1994). Self, silence, and invisibility as a beginning teacher: A life history of lesbian experience. *British Journal of Sociology of Education, 15*(1), 93–119.

Turnbull, Annmarie. (2000). Collaboration and censorship in the oral history interview. *International Journal of Research Methodology, 3*(1), 15–34.

Wilmsen, C. (2001). For the record: Editing and the production of meaning in oral history. *Oral History Review, 28*(1), 65–85.